

المقام

ربيع ثاني سنة ١٣٢٢

المقيم المقعد

للشيخ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي البغدادي عليه الرحمة هو كتاب جليل نادر الوجود توجد منه نسخة عند بعض طلبة العلم في بغداد. أوله لما كانت العربية تنقسم قسمين أحدهما الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه ولا يحتمل غير ظاهره. والثاني المشتمل على الكنايات والإشارات والتجوز. وكان هذا القسم هو المستحلى عند العرب نزل القرآن بالقسمين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله. فكأنه قول عارضوه بأي القسمين شتم ولو نزل كله واضحاً لقالوا هلا نزل بالقسم المستحلى عندنا. ومتى وقع في الكلام إشارة أو كناية أو استعارة أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن.

قال امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل

فشبه النظر بالسهم فحلا هذا عند السامع. وقال أيضاً:

فقلت له لما تغطي بصلبه ... وأردف إعجازاً وناء بكلكل

فجعل الليل صلباً وصدراً على جهة التشبيه. واستشهد أيضاً بشعر آخرين من شعراء الجاهلية وأطال في الكلام وأطرب. ثم عقد فصلاً في مطالب شتى. منها فصل في بيان عادة العرب في تكرير الكلام واستشهد على ذلك بمنشور ومنظوم من كلام فصانحهم وخطبانهم.

ثم قال فصل وقد تأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة كأنها معها وهي غير متصلة بها وفي القرآن (يريد أن يخرجكم من أرضكم) هذا قول الملاء فقال فرعون (فماذا تأمرون) وأورد شواهد أخر من القرآن ومن كلام الفصحاء وأطرب في الكلام. ثم قال فصل وقد تجمع العرب شيئين في كلام فترد كل واحد منهما إلى ما يليق به وفي القرآن (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فيقول الرسول (إلا أن نصر اللع قريب). وهو فصل طويل.

ثم قال فصل وقد يحتاج بعض الكلام إلى بيان فيبينونه متصلاً بالكلام ومنفصلاً وجاء القرآن على ذلك فمن اتصل (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات). وأما المنفصل الخ وذكر له عدة شواهد من القرآن وغيره.

ثم قال فصل وقد تذكر العرب جواب الكلام مقارناً له وقد تذكره بعيداً عنه وعلى هذا ورد القرآن فإن المقارن من الجواب كقوله تعالى (ويسألونك ماذا يفتقون قل العفو) وأما البعيد فتارة يكون في السورة كقوله تعالى (ما لهذا الرسول الآية جوابه بعده باثني عشرة آية وهو قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين) الآية.

ثم قال فصل في ذكر أقسام الخطب في القرآن. الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً خطاب عام الله الذي خلقكم. وخطاب خاص (أكفرتم). وخطاب الجنس (يا أيها الناس). وخطاب النوع (يا بني آدم). وخطاب العين (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة). وخطاب المدح (يا أيها الذين آمنوا). وخطاب الذم (يا أيها الذين كفروا).

وخطاب الكرامة (يا أيها النبي) وخطاب الإهانة (فإنك رجيم). وخطاب الجمع بلفظ الواحد (يا أيها الإنسان ما غرك بربك). وخطاب الواحد بلفظ الجمع (وان عاقبتهم فعاقبوا). وخطاب الواح دبلفظ الاثنين (ألقيا في جهنم). وخطاب الاثنين بلفظ الواحد (فمن ربكما يا موسى). وخطاب العين والمراد به الغير (فإن كنت في شك). وخطاب التلون وهو على ثلاثة أوجه أحدها أن يخاطب ثم يخبر (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم. وما أتيتهم من زكوة يريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون). والثاني أن يخبر ثم يخاطب (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم. وسقامهم رحيم شراً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء) والثالث أن يخاطب عيناً ثم يصرف الخطاب إلى الغير. (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله) على قراءة.

ثم قال فصل في ذكر أمثال القرآن وذكر اثنين وأربعين مثلاً منها وبين ما اشتملت عليه من البلاغة والفصاحة والحكم بما لا يزيد عليه.

ثم قال فصل في الحروف الزوائد والنواقص وذكر هنا مسائل لغوية مفيدة تنس إليها حاجة اللغوي وطلاب علم العربية.

ثم قال فصل في المقدمة والمؤخر وذكر ما يجب تقديمه في الكلام وما يجب تأخيره في النظم والنظر وهو بحث لم تطفو به يد غيره من المحققين.

ثم قال فصل واعلم أن لغة العرب واسعة ولهم التصرف الكثير فتراهم يتصرفون في اللفظة الواحدة بالحركات فيجعلون لكل حركة معنى كالحمل والحمل والروح والروح وتارة بالأعجام كالصح والنضح والقبضة والقبضة والمضمضة والمضمضة وتارة يقلبون حرفاً من كلمة لا يغير عندهم معناها كقولهم صاعقة وصاعقة وجذب وجذب وما أيه وأبطه وربض وربض وانضب وانضب في القوس وانضب. ولعمري ورعلمي.

واضححل وامضحل. وعميق ومعيق. وسبب وبسس. وليكت الشيء وبلكته. وأسير مكبل ومكلب. وسحاب مكفهر ومكرهف. وناقاة ضمزر وضمزرز إذا كانت مسنة. وطريق طامس وطاسم. وقفا الأثر وقاف الأثر. وقاع البعير الناقاة وقعاها. وقوس عطل وأعط لا وتر عليها. وجارية قين وقيت قليلة الرزأ (كذا). وشرخ الشباب وشخره أوله. ولحم ختر وخزن. وعاث يعث وعثي يعثي إذا أفسد. وتنج عن لقم الطريق ولق الطريق. وبطيخ وطبيخ. وماء سلسال ولسال ولسلسل ومسلسل ومللس إذا كان صافياً. ودقم فاه بالحجر ودمقه. وفثأت القدر وثقاها إذا سكن غليانها. وكبكت الشيء وبكبكته إذا طرحت بعضه على بعض.

ثم قال فصل ومن سعة اللغة وحسن تصرفها أن العرب تضع للشيء الواحد أسماء من غير تغير يعتريه فيقولون السيف والمهند والصارم ويغيرون الاسم بغير يعترى فيقولون بمن نزل في الركي فملاً الدلو مآتح للمستسقي من أعلاها مآتح فالتاء المعجمة من فوق لمن فوق والياء المعجمة من تحت لمن تحت وتضع العرب للشيء الواحد أسماء تختلف باختلاف محاله فيقولون لمن انحسر الشعر عن جانبي جبهته أنزع فإذا زد قليلاً قالوا أجليح فإذا بلغ الانحسار نصف رأسه قالوا له أجلي وأجله فإذا زاد قالوا أصلع فإذا ذهب الشعر كله قالوا أحص والصلع عندهم ذهاب الشعر والقرع ذهاب البشرة ويقولون شفة الرجل ويسمونها من ذوات الخف المشفر. ومن ذوات الظلف المقمة ومن ذوات الحافر الحفلة ومن السباع الخطم. ومن ذوات الجناح غير الصائد المنقار ومن الصائد النسر ومن الخنزير الفنطيسة.

ويقولون صدر الإنسان ويسمونه من البعير الكركرة ومن الأسد الزور ومن الشاة القص ومن الطائر الجزجؤ ومن الجرادة الجوشن وللسمرة الندي وللرجل تندوة وهو من ذوات الخف الخلف ومن ذوات الظلف الضرع ومن ذوات الحافر والسباع الطي

وللإنسان الظفر ومن ذوات الخف النسم ومن ذوات الظلف الظلف ومن ذوات الحافر الحافر ومن السباع والصادد من الطير المخلب ومن الطائر غير الصائد والكلاب ونحوها البرثن ويجوز البرثن في السباع كلها والمعدة للإنسان بمنزلة الكرش للدابة والحوصلة للطائر.

ثم قال فصل المراهق من العلمان بمنزلة المعصر من الجوارى والكاعب منهن بمنزلة الحزور منهم والكهل من الرجال بمنزلة النصف من النساء. والقارح من الخيل بمنزلة البازل من الإبل. والعجل من البقر والشادن من الظباء كالناهض من الفراخ. والبكر من الإبل بمنزلة الفتى من النساء. والقلوص بمنزلة الجارية. والجمل بمنزلة الرجل. والناقة بمنزلة المرأة والبعير بمنزلة الإنسان. والغرز للجمل كالركاب للفرس. والغدة للبعير كالطاعون للإنسان. والهالة للقمر كالدارة للشمس. والبصرة في القلب كالصبر في العين.

ثم قال فصل وتفرق العرب في الشهوات فيقولون جائع إلى الخبز قرم إلى اللحم عطشان إلى الماء عيمان إلى اللبن قرد إلى التمر خصم إلى الفاكهة شبق إلى النكاح ويفرقون في أسماء الأولاد ليقولون لولد كل سبع جرو ولولد كل ذي ريش فرخ ولولد كل وحشية طفل ولولد الفرس مهر وفلو ولولد الحمار جحش وعلو ولولد البقرة عجل ولولد الأسد شبل ولولد الظبية خشف ولولد الفيل دغفل ولولد الناقة حوار ولولد الثعلب الجرس ولولد الضب حمل ولولد الأرنب خرنق ولولد النعام رال ولولد الدب ديسم ولولد الخنزير خنوس ولولد اليربوع والفأرة درص ولولد الحية حربش ويقولون البيض للطائر والمكن للضباب والمازن للنمل والسر للجراد والصواب للقميل ويفرقون في المنازل فيقولون بيت من مدر وبجلد من وبر وخباء من صوف وفسطاط من شعر وخيمة من غزل وقشع من جلود. ويفرقون في الأوطان

فيقولون وطن الإنسان وعطن البعير وعرين الأسد ووجار الأسد والضيع وكناس
 الوحش وعش الطائر وقرية النمل وكور الزناير وناقاء اليربوع ويقولون لما يصنعه
 الطائر على الشجر وكرفان كان على جبل أو جدار فهو وكن فإذا كان في كن فهو
 عش فإن كان على وجه الأرض فهوأ فحوص والأوحى للنعام خاصة ويقولون عدا
 الإنسان وأحضر الفرس وأرقسل البعير وعسل الذئب ومزغ الظبي وخف النعام
 ويقولون طفر الإنسان وصبر الفرس ووثب البعير ونفر العصفور وطمر اليرغوث
 ويفرقون في الضرب فيقولون للضرب بالراح على مقدم الرأس صقع وعلى القفا
 صفع وعلى الوجه صك وعلى الخد يسط الكف لطم وبقبضها لكم وبكتا اليدين
 لدم وعلى الذقن والحك وهر وعلى الجنب وخرز وعلى الصدر والبطن بالكف وكز
 وبالركبة زين وبالرجل ركل وعلى كل ضارب بمؤخره من الحشرات كالعقارب يسلم
 وكل ضارب منها بقمه يلدغ ويفرقون في الجماعات فيقولون كوكبة من الفرسان
 وكبكية من الرجال وجوقة من الأطباء وعرجلة من السباع وعصابة من الخيل وصرمة
 من الإبل وقطيع من الغنم وسرب من الأطباء وعرجلة من السباع وعصابة من الطير
 ورجل من الجراد وخرشم من النحل ويفرقون في الامتلاء فيقولون بحر طام وفهر طافح
 وعين ثرة وإناء مفعم ومجلس غاص بأهله ويفرقون في اسم الشيء اللين فيقولون ثوب
 لين ورمح لدن ولحم رخص وريح رخاء وفراش وثير وأرض رشة ويفرقون في تغير
 الطعام وغيره فيقولون أروح اللحم وأسن الماء وختر الطعام وسخ السمن وزنخ
 الدهن وقتم الجوز ودخن الشراب وصدأ الحديد وتغل الأديم ويقولون يدي من اللحم
 غمرة ومن الشحم زهمة. ومن البيض زهكة. ومن الحديد سهكة. ومن السمك زنخة.
 ومن الخل حمطة. ومن العسل لزقة. ومن الفاكهة لزجة. ومن الزعفران ردة. ومن
 العجين ورخة. ومن الطيب عبقة. ومن الدم ضرجة. وسلطة وسلطة. ومن الوحل

لثقة. ومن الماء بللة. ومن الحمأة زفطة. ومن البرد صردة. ومن الأشتان قضة. ومن المداد وحدة. ومن دهن البزر والنفط غسة ونسمة. ومن البول قتمة. ومن العذرة طفسة. ومن الوسخ وزنة. ومن العمل محلة.

ويفرقون في الوسخ فإذا كان في العين قالوا أرمص فإذا أجف فهو عمش. فإذا كان في الأسنان فهو حفر. فإذا كان في الأذن فهو أف. فإذا كان في الأظافر فهو تف. فإذا كان في الرأس فهو حزار. وهو في باقي البدن درن.

ويفرقون في الكشف عن الشيء من البدن فيقولون حسر عن رأسه وسفر عن وجهه وافتر عن نابيه. وكشر عن أسنانه. وأبدى عن ذراعيه. وكشف عن ساقه وهتلك عن عورته.

ويفرقون في الرياح فإذا وقعت الريح بين ريحين فهي نكباء. فإذا وقعت بين الجنوب والصبأ فهي الجريباء. فإذا أهبّت من جهات مختلفة فهي المناوحة. فإذا جاءت بنفس ضيف فهي النسيم. فإذا كانت شديدة فهي العاصف. فإذا قويت حتى قلعت الحيام فهي المهجوم. فإذا حركت الأشجار تحريكاً شديداً وقلعتها فهي الرزع. فإذا جاءت بالهباء فهي الحاصب. فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء فهي الإعصار. فإذا جاءت بالغبرة فهي الهبوة. وإذا كانت باردة فهي الجرجف والصرصر. فإذا كانت معبردها ندى فهو البليل فإذا كانت حارة فهي السموم. فإذا لم تلقح ولم تحمل مطراً فهي العقيم.

ويفرقون في المطر فأوله رش ثم طش ثم طل ورذاذ ثم نضح ثم نضخ ثم هطل ثم تھتان ثم وابل وجود فإذا أحيأ الأرض بعد موتها فهو الحيا. فإذا جاء عقب الحبل أو عند الحاجة إليه فهو الغيث. فإذا كان صغار القطر فهو القطقط. فإذا دام مع سكون فهي الدينة.

فإذا كان عاماً فهو الجداء. فإذا روى كل شيء فهو الجود. فإذا كان كثير القطر فهو
المطل والتهان. فإذا كان ضخماً القطر شديد الوقع فهو الوابل.
ويقولون هجهجت السبع وشايعت الإبل ونعقت بالغنم وساسأت بالحمار وهامأت
بالإبل إذا دعوتها للعلف وجأجأت بها إذا دعوتها للشرب وأشليت الكلب دعوته
أسدته أرسلته.

ويفرقون في الأصوات فيقولون رغا البعير وجرجر وهدر قبق وأطت الناقة وصهل
الفرس وحمحم وهم الفيل وشهق الحمار وسحل ومسحج البغل وجأرت البقرة وخارت
وثأجت النعجة. وثعت الشاة ويعرت. ونعم الظبي ونزب. ووعوع الذئب. وضج
العلب وصغب الأرنب. وعوى الكلب ونبح ومأت النور وصأت الفأرة. وفحت
الأنعى. ونعن الغراب ونغب. وزق الديك وصعن. وصفغ النسر. وهدر الحمام
وهدل. وغلرد المكاء وقبع الخنزير ونقت العقرب. وانقضت الضفادع ونقت أيضاً
وعزفت الجن.

ثم قال فصل وللعرب خاص وعام فالبعض عام والفراك خاص. النظر إلى الأشياء عام
والشم للبرق خاص. الصراخ عام والواعية على الميت خاص الذئب للحيوان البهيم
عام والذئابي للفرس خاص السير عام والسرى لليل خاص المرب عام والأباق للبعيد
خاص الرائحة عام والقتار للشواء خاص.

ثم قال فصل ومن جملة المسلم للعرب أنهم لا يقولون ماندة إلا إذا كان عليها الطعام
والا فهي خوان ولا للعظم عرق إلا ما دام عليه لحم ولا كأس إلا إذا كان فيها شراب
والا فهي زجاجة ولا كوز إلا إذا كانت له عروة والا فهي كوب ولا رضاب إلا إذا
كان في الفم والا فهو بصاق ولا أريكة إلا لسرير عليه قبة فإذا لم يكن عليه قبة فهو
سرير ولا ربطة إلا إذا كانت لفقين والا فهي ملاءة ولا خدر إلا إذا كانت فيه امرأة

والا فهو ستر. ولا للسراقة طعينة إلا إذا كانت في المودج ولا قلم إلا إذا كان مبرياً
والا فهو أنوبة ولا عهن إلا إذا كان مصوغاً والا فهو صوف ولا وقود إلا إذا
اتقدت فيه النار والا فهو حطب ولا ركية إلا إذا كان فيها ماء والا فهي بثر ولا للإبل
راوية إلا ما دام عليها الماء ولا للدلو سجل إلا ما دام فيها ماء ولا ذنوب إلا ما دامت
ملاى ولا نفق إلا إذا كان له منفذ والا فهو سرب ولا للسرير نعش إلا ما دام عليه
الميت ولا للخاتم خاتم إلا إذا كان عليه قص ولا رمح إلا إذا كان عليه زج ولسان
والا فهو قناة ولا لطيمة إلا للإبل التي تحمل الطيب والبز خاصة ولا همولة إلا للتي
تحمل الأمعة خاصة ولا بدنة إلا للتي تجعل للنحر ولا ركب إلا لركبان الإبل ولا
هضبة إلا إذا كانت عيداناً مجموعة وإذا كان نقب في جبل أو حائط فهو وكن ووكر.
ثم قال فصل وتقول العرب في الأمر وهن وفي الثوب وهي وفي الحساب غلت وفي
غيره غلط وفي الطعام بشم وفي الماء ثغر وحلا الشيء في فمي وحلي في عيني الخ.
وهكذا جميع فصول الكتاب كلها غرر بل قلائد درر وهو نحو أربعمائة صفحة
والصفحة على ربع الورق تغمد الله تعالى مؤلفه برحمته ورضوانه.

بغداد

محمود شكري الألومي

بعد البين

لقد طرحتني في البلاد مضاعا ... طوائج جاءت بالخطوب تباعا
فبارحت أرضاً ما ملأت حقائي ... سوى حبها عد البراح متاعا
عتبت عليّ بغداد عتب مودع ... أمضته فيها الحادثات قراعا
أضاعتني الأيام فيها ولو درت ... لعز عليها أن أكون مضاعا
لقد أَرْضَعَنِي كل خسف وإفني ... لأشكرها إن لم تتم رضاعا

وما أنا بالجاني عليها وإنما ... فمضت خصاماً دونها ودفاعاً
وأعملت أقلامي بما عربية ... فلم تبد إصغاء لها وسماعا
ولو كنت أدري أنها أعجبة ... اتخذت بها السيف الجزاز يراعا
ولو شئت كمايئت الذين انظروا بما ... على الحقد صاعاً بالعداء فصاعاً
ولكن هي النفس التي قد أبت لها ... طباع المعالي أن تسوء طباعاً
أبيت عليهم أن أكون بذلة ... وتأبى الصواري أن تكون ضباعاً
على أنني داريت ما شاء حقدهم ... فلم يجد نفعاً ما آتيت وضاعاً
وأشقى الورى نفساً وأضيعهم نفي ... ليب يداري في ثمان رعا
تركت من الشعر المديح لأهله ... ونزهت شعري أن يكون فذاعاً
وأنشدته يجلو الحقيقة بالنهي ... ويكشف عن وجه الصواب فناعاً
وأرسلته عفواً فجاء كما ترى ... توافي تجتأب البلاد سراعاً
وقفت غداة البين في الكرخ وقفة ... لها كربت نفسي تطير شعاعاً
أودع أصحابي وهم محدقون بي ... وقد ضقت بالبين المشت ذراعاً
أودعهم في الكرخ والطرف مرسل ... إلى الجانب الشرقي منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مطرقاً ... كأن برأسي يا أميم صداعاً
وكنت أظن البين سهلاً فمذاق ... شرى البين مني ما أراد وباعاً
وإني جبان في فراق أحبي ... وإن كنت فيغير الفراق شجاعاً
كأنني وقد جدّ الفراق سفينة ... أشالت على الريح المهجوم شراعاً
فمالت بما الأرواح والبحر مانج ... وقد أوشكت ألواحها تتداعى
فحبني من هزة في أفدعاً ... ترقى هضاباً زلزلت وتلاعاً
فما أنا إلا قومةً والخناءة ... وسرُ أذاعته الدموع فذاعاً

أبيت وما أقوى المهورم خضجع ... تصارعني فيه المهورم صراعا
 وألهو بذكرهم على السير كلما ... هبطت وهاداً أو علوت يفاعا
 هم القوم أما الصبر عنهم فقد عصى ... وأما اشتياقي نحوهم فأطاعا
 لقد حكموني في الأمور فلم أكن ... لانطق كلاباً أم فحمت سباعا
 فلت أباي بعد أن جدّ بينهم ... زجرت كلاباً أم تحمت سباعا
 سلاماً على وادي السلام واني ... لأجعل تسليمي عليه وداعا
 له الله من وادٍ تكاسل أهله ... فباتوا عطاشاً حوله وجياعاً
 رآهم عبيداً فاستبد بجائنه ... ولم يحجر بين المجديات مشاعا
 جرى شاكراً صنع الطبيعة إنها ... أبانت يداً في جانبيه صناعا
 وما أنس لا أنس المياه بدجلة ... وإن هي تجري في العراق ضياعا
 ولو أنها تسقي العراق لما رمت ... به الشمس إلا في الجنان شعاعا
 وما وجدت ريح وإن قد تناوحت ... مهياً به إلا قرى وضياعا
 سأجري عليها الدمع غير مضيع ... وأندب قاعاً من هناك فقاعاً
 وأذكر هاتيك الرباع بحسها ... فتعمت على شحط المزار رباعا

الأستانة —

معروف الرصافي

النقل والناقلون

للتأليف طريقتان طريقة الاعتماد على من سبق لمؤلف ونقل كلامهم ليدعم به قوله
 ويزيد رأيه وطريقة إبداء رأي المؤلف مباشرة دون الاستشهاد بأقوال غيره مهما بلغت
 من المكانة. والطريقة الأولى هي الطريقة العلمية المقنعة التي تبقى على الدهر ويصعب

أن يتطرق إليها الخلل إلا إذا ظهرت نصوص كثيرة صحيحة تخالف ما استشهد به الكاتب.

فقد رأى ديكارت الفيلسوف الفرنسي أن ليس في مذاهب الغير ولا سيما في الفلسفة كبير أمر وأنا الأجدر ولو بعض أرباب العقول أن يبحثوا عن الحقيقة بما فيها من الأسرار الخاصة دون الاحتفال بالمذاهب الأخرى التي ذهب إليها غيره في هذه المسألة بيد أن بعض إشباع فلسفة ديكارت نفهم يرون أن هذا البحث على خلوده من فائدة ضار لأنه يسلب من العقل في تقدير الأشياء قدرها.

ويرى الفيلسوف كوزين الفرنسي غير رأي ديكارت بل أنه غالى في ضرورة درس المذاهب الفلسفية السالفة حتى تدرج إلى أن مزج الفلسفة بتاريخ الفلسفة ومن رأيه أن الطريقة الفلسفية الوحيدة الجديرة بهذا العصر أن يدرس المؤلف المذاهب كلها ويقابل بين المذاهب التي ظهرت إلى اليوم على مشهد العقل البشري من المذاهب المتناقضة.

فم عاد ديكارت أيضاً فقال أن المصنفات التي يصنفها جماعة قد تكون في كمالها دون التي يصنفها فرد واحد وتدرج من ذلك إلى أن قال أن العلوم التي تألفت على التوالي من آراء كثيرين قد يكون حظها من الأخذ بطرف من الحق أقل من العلوم التي هي ثمرة فكر واحد.

ومن العادة عند مؤلفي الغربيين إذا أرادوا الكتابة أن يطالعوا جميع ما يمكنهم مطالعته في الموضوع الذي يريدون الخوض فيه فيطالع الألماني ما كتبه الفرنسي والإيطالي والروسي والإنكليزي والأميركي وغيره غيرهم لتكون كتابته مؤيدة بالشواهد الصحيحة ولذا قرأ مبسر فيلسوف الإنكليز في القرن التاسع عشر ١٧٣ كتاباً قبل أن يكتب كتابه العدل. وهكذا كل مؤلف في الغرب اليوم.

وبعد فما كل قول ينقل ويستشهد به حجة لتأييد الكلام وإنما ينقل قول يكون قائله قدوة وإلا فما من قول إلا وقد قيل كما قال كثير من الحكماء. وقد نشأ من نقل أقوال كيفما اتفق اختلاف كثير حتى أن الباحث إذا دقق النظر يرى أن تلك الأقوال ترجع إلى قول أو قولين ممن يعتد بهم ولو أمكن لكل مؤلف أن يسلك طريقة الجاحظ في قوله: إنما أحكي لك من كل نخلة قول حذاقهم وذوي أحلامهم لأن فيه دلالة على غيرة وغنى عما سواه لكان نهج السبيل الأقوم.

ومن نقل كل ما يقال ترى في كتب التاريخ والملل والنحل أقوالاً إذا بحثت عنها لم تجدوها إلا عند بعض أدنى العوام فكراً ولو عين المنقول إليه لسقط موقع القول من النفوس لكن بعض الناقلين لقصورهم في النظر ينقلون كل ما يقال بدون تعيين المنقول عنه ولو عينوا المنقول لسقط الإشكال. وكثيراً ما يقصد الحذاق منهم المغالطة ليوهموا الناظر أن في المسألة اختلافاً وهو محل دقيق جداً يغلط فيه التحرير العالم على أن بعضهم يرى أن لا ينقل من قول لا الحذاق إلا قول له موقع في النفس ومن ثم يقول القائل.

وليس كل خلاف جاء معتبراً ... الأخلاف له حظ من النظر

وإن أرباب النقد ليبحثون في كل قول عمن قاله ليعلموا درجة القائل في نفسه ودرجته في اقتداء الناس به وبذلك تظهر له الحقيقة في أجلى مظاهرها وقد قال حجة الإيلام الغزالي قولاً قاله كثير ممن قبله لو سكنت من لا يعلم قلّ الخلاف في العالم.

سألنا ذات يوم أحد العلماء العارفين عن السر في اختلاف المذاهب والمشاعب المنقولة فقال: وربما نجد في كتب الملل والنحل أسماء فرق لها أقوال غريبة يصعب عليك بعد السمع الشديد أن تعرف في أي عصر وجدت وأين وجدت وكيف وجدت وفي أي قطر يوجد منهم أناس وإن زعم الزاعم انقراضها يعسر عليه إثبات زمان انقراضها

وأغرب من ذلك صعوبة معرفة ترجمة رجل من حذاقها فذكر فرقة من هذا النوع يعد سخافة من الناقل. والذين لهم كتب في هذا المقام منهم الناقل غير الناقد ومنهم المموه لغلبة الهوى عليه في هذا الباب مثلاً لكفينا المؤنة في ذلك نعم يقال أن الجاحظ قد يسلك طرق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض معاصريه من أبناء نحلته كأبي جعفر الإسكافي لكن قنويه الجاحظ قنويه عاقل ذي بصيرة إذا موه يكاد يظهر الحق من خلال قنويه وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر فالعاقل ذو البصرة ينتفع بكلامه كيف كان قال ومن يخلط في نقله كالطبيب الذي ينقل كل قول لا يعود أحد بعدد بمنقوله وكذلك النحوي وغيره وهذه القاعدة تكاد تكون عامة لا تخلف في كل فن فقد نقل ابن أبي الحديد أن الجاحظ ألف كتاباً سماه كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر فيه ما يشعر بالنصب لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافي فنقض كتابه وأطلق لسانه في الجاحظ إطلاقاً لم يقع نظيره من المضادين للجاحظ في النحلة فمن ذلك قوله: القول ممكن والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ. . . قوله لغو ومطلبه سجع وكلامه لعب وهو يقول الشيء وخلافه ويحسن القول وضده.

قال قاضي القضاة عبد الجبار في كتاب طبقات المعتزلة نقض الإسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال: من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقد كتابي وأبو جعفر جالس فاختمني منه حتى لم يره وكان أبو جعفر علوي الرأي محققاً منصفاً قليل العصية ألف سبعين كتاباً في علم الكلام.

وقصارى القول أنه لا ينقل إلا كلام الثقات والعظماء للاستئناس به وتقوية أواصر الكلام به وقد ينقل كلام بعض الضعفاء لنكتة فيه أو لعبرة تراد منه. والكتابة بدون

استشهاد بأقوال الأئمة والعظماء مهما بلغت درجة صاحبها لا يلتفت إليها عند المحققين ولو حوت من اللآلئ كل عقد ثمين.

التمييز في الألبسة

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الأفكار كما تراه في الأديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء وقد وفق الغرب إلى توحيد ألبسة أهله في القرون الأخيرة أما الشرق فلم يزل في تخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية.

اختلاف المشاركة في ألبستهم قديم فقد كان للقضاة وللأجناد وللعلماء والعامّة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا نجد لو طفت الأقاليم ودرست المدن.

وكان لأهل الذمة في الإسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التي دعا إليها العرب لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلباس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في كتاب نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين يلبسه فإن كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وإن كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقة صلياً وإن كانت امرأة ليست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود وإذا عبر الذمي إلى الحمام ينبغي أن يكون في حلقة صلب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختر عن غيره.

وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ

يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلائسهم مضرية قبل وإن عمر بن الخطاب امر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أي أن تكون قلائسهم طوالاً مضرية وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لي أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمامات وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الحمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذل فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة.

وفيما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين في العصور الإسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج إلا من التحكم البارد غالباً. قال ابن الأثير في حوادث سنة ٢٣٥ أن المتوكل أمر أهل الذمة بلبس الطيالة العالية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرنين في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس ممالكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عملياً وصنعهم من لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثه وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا في شعائهم صلباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض وكتب في ذلك إلى الآفاق.

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القيامة بالقدس وكانت فيها أموال وجواهر ما لا يوصف وألزم النصارى بتعليق صلبان على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشقي من خشب ومثال رأس العجل كالمدة وزها رطل ونصف وأن يشدوا الأجراس في رقابهم عند دخول الحمامات قال وألزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر والشام أهل الذمة

بالصلبان في أعناقهم وألبس اليهود العمائم السود نكاية واهنة لبني العباس قال ابن خلكان وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العمائم السود وأن تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرتال وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون في أعناق إذا دخلوا الحمام الصلبان وفي أعناق اليهود الجلاجل ليميزوا عن المسلمين.

قلنا وكان في الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر فينهي عنه في الغد. وذكر الذهبي في حوادث سنة مبعائة أن النصارى واليهود ألبست بنصر والشام العمائم الزرق والصفير واستمر ذلك. وسنة ٧٣٤ أُلزمت النصارى ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود.

وروى لسان الدين بن الخطيب أن اسمعيل بن فرج الخرجي من ملوك الأندلس اشتهر في إقامة الحدود وإرافة المسكرات وحظر تجلي القينات للجوال في الولايم وقصر طرهن على أجناسهن من الناس وأخذ لليهود الذمة بالترام سمة تميزهم وإشارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة التي أمر بها الشرع في الخطاب. والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر. وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن أنه أمر في آخر أيامه أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه عجب الله إلى أن غره أبو عبد الله بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا

بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ واثنا حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به شكه في إسلامهم وكان يقول لو صح عندي إسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين ولكني متردد في أمرهم ولم تعقد عندنا ذمة لليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يظهرن الإسلام ويصلون في المساجد ويقرون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وستتنا والله أعلم بما تكنه صدورهم ونحوه بيوهم اهـ.

وقال ابن أبي أصيعة: حدثني الشيخ موفق الدين البوري الكتاب النصراني قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى إلى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وهو شاب على رأسه كوفية وتخفية صغيرة وهو لا يسي جوخة ملوطة زرقاء زي أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يحمدنه ويتردد إليه لعله ينفعه فقال له هذا الزي الذي أنت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين وإنما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الأطباء في بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسهما.

قال ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة أسعد بن المهذب ما يأتي: كان المهذب أبوه المعروف بالخطر مرتباً على ديوان الإقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه في بدء أمره بمصرانه نصراني وأنه يتصرف في (عمله) بلا غبار فهاه وأمره بغيار النصراني ورفع الذؤابة وشد الزنار عن الديوان فبادر هو وأولاده فأسلوا على يده فأقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذروري:

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة في دين أحمد
بل ظن أن محاله ... يقي له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعرد أحمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وإن يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليميني:

يا أسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا ... فما الذي يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف في الأزياء بين أهل الوطن الواحد وأكثره كما ترى ناشيء
من ملوك وفقهاء متعصبين تعصب ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن
رجال الجد في الإسلام مثل الرشيد والمأمون وصالح الدين ونور الدين تحكموا هذه
التحكمات والله أعلم.

الجغرافيا والعرب

لم يترك العرب أيام حضارتهم فرعاً من فروع العلوم النافعة في قيام مجتمعهم إلا وتوفر
أفراد منهم عليه. وعلم الجغرافيا هو أحد تلك العلوم ولم يكن لهم به عهد في الجاهلية
كالشعر والرواية والأدب والخطب وإذا ذكروا بعض أسماء البلدان المجاورة لهم فإنما
يذكرونها بالعرض لا تشعر بعرفة ولا تنم عن اشتغال.

وكان أول الكتب التي نقلوها إلى لسانهم كتب بطليموس اليوناني في الجغرافيا ومن
أول الأعمال الجغرافية العلمية التي تمت على يد علمائهم هو أن المأمون أمر محمد بن
موسى بن شاكر وأخويه أحمد والحسن بتحقيق طول خط نصف البار لمعرفة محيط
الكرة الأرضية فقاموا أحد خطوط الطول في سهل سنجار ثم أعادوا المقياس ثانياً في
وطات الكوفة فثبت لديهم كروية الأرض وعرفوا محيطها.

قال ابن خلكان في ترجمة بني شاكرو: وكانت لهم هم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل وأتبعوا أنفسهم في شأها وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم واحتضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبدل السني فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد. ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القوة إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه ولكنه لم يثقل أحداً من أهل هذه الملة تصدى له وفعله إلا هم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ بحيث لو وضع طرف جبل على أي نقطة كانت من الأرض وأدركنا الجبل على كرة الأرض حتى انتهنا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض والتقى طرفا الجبل فإذا سخا ذلك الجبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا: نعم هذا قطعي وقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطات الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يتق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاؤا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات. وضربوا في ذلك الموضع وقد آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان فلما فرغ الجبل نصبوا في الأرض وقد

آخر وربطوا فيه حبالاً طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا منه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلاثي ميل فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلاثان ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الرصد الأول وشدوا فيه حبالاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي اسعملوها في جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك.

وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر لهم حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلاثمائة وستون درجة لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً وكل برج ثلاثون درجة لتكون الجملة ثلاثمائة وستين درجة فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستين ميلاً أي التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ وهذا محقق لا شك فيه فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك.

هذا ما قاله صاحب وفيات الأعيان بنصه وليس العمل لإثبات كروية الأرض هو العلم الوحيد الذي قام به المأمون فقد قال المسعودي صاحب مروج الذهب في كتابه التبيه والإشراف وهو مما ألفه بفسطاط مصر سنة ٣٤٥ للهجرة: ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا

مارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون اجتمع على صنعها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما.

قال السنيور جويدي الإيطالي وليس حكماء العرب هم الذين عنوا دون غيرهم من الأمة العربية برسم صورة الأرض بل أن أمراءهم كذلك ومنهم أمير المؤمنين المأمون الخليفة العباسي فإنه أغرم برسم الأرض وبذل قصارى جهده في إبرازها فجمع من بالعراق من حكماء دولته زهاء سبعين حكيماً على ما قيل فاجتمعوا على تكوينها وأحكامها حتى فضلت بذلك ما تقدمها من الصور اهـ ولقد عرف المسلمون أن من جملة أسباب الفتح معرفة طرق البلدان والأمصار فقد ذكر المؤرخون أنه قام الملاحون المدعوون بالمغرورين في القرن الأول للهجرة وأقلعوا من لشبونة عاصمة البرتغال اليوم بغية الوصول إلى ما وراء كوليس وفي البعثات التي سيرها الخلفاء إلى القاصية كبعثة الواثق العباسي لاكتشاف سواحل الخزر وبعثة المقتدر بالله عام ٣٠٩ إلى البلغار للدعوة الإسلامية فيها وأخذ أحد أعضاء البعثة أحمد بن فضالان معلومات مفيدة عن تلك البلاد وفي الحملة التي وصلت إلى بكين بعد فتح كاشغر سنة ست وتسعين للهجرة لدعوة الصين إلى الإسلام في كل ذلك أكبر دليل على تقدير العرب على رسم الأرض أو الجغرافيا أو علم تقويم البلدان.

ولقد كان علماء الحديث من أشد الناس عناية بالجغرافيا لتمييز النسب إلى البلدان والفرق بين الرجال ومساقط رؤوسهم وهذا هو السبب الذي دعا أرباب المعاجم أن يذكروا أسماء الأمصار والقرى. ومن راجع باب العشر والخراج في مطولات الفقه علم ما بين الفقه والجغرافيا من التعلق.

كتب أحد الخلفاء إلى حكيم من حكماء عصره حين فتح الله البلاد على العرب من العراق والشام ومصر وغيرها يقول: إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها فكتب إليه ذلك الحكيم بجغرافيتها الطبيعية. وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى أحد عماله أن يصف له جزيرة الأندلس لأنه علم أن المسلمين نزلوا فيها في بلاد يحيط بهم الإفرنج من أكثر الجهات ولا بقاء لهم في تلك البلاد.

ولما اجتمع ابن خلدون بتمورلنك سنة ٨٠٢ هـ في دمشق سألته هذا عن بلده والمغرب الأقصى فذكر له ابن خلدون ما حضره وطلب منه أن يؤلف له مختصراً وجزياً يصف له بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وأثمارها وقراتها وأمصارها فكتب له في غربته اثني عشرة كراساً في وصف المغرب.

وأجمع تعريف للجغرافيا يستدل منه على موقعها من نفوس العرب واتصالها بعدة علوم لهم ما قاله ياقوت في مقدمة معجم البلدان: ومن ذا الذي يسخني من أولي البصائر معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها والناس في الافتقار إلى علمها سواسية وسر دوراتها على الألسن في المحافل علانية لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ومشاهد للأولياء الصالحين ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين وقد فتحت هذه الأماكن صلحاً وعنوة وأماناً وقوة ولكل من ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفيء وأخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وإتالة التسويات والإقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها ولا تعذر الأئمة والأمراء إذا فاتهم في كريق العلم حزنها وسهلها لأنها من لوازم فتيا الدين وضوابط قواعد الإسلام والمسلمين فأما أهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار

فحاجتهم إلى معرفتها أمس من حاجة الرياض إلى القطار غب أخلاف الأتواء والمشي إلى العافية بعد يأس من الشفاء لأنه معتمد عليهم الذي قل أن تخلو منه صفحة بل وجهة بل سطر من كتبهم وأما أهل الحكمة والفهم والتطب والتجيم فلا تقصر حاجتهم إلى معرفته عن قدمنا فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها إذ كانوا لا يحكمون على البلاد إلا بطوالعها ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة أقاليمها ومواضيعها ومن كمال المتطب أن يتطلع إلى معرفة مزاجها وهوائها وصحة أو سقم منبتها ومائها فصارت حاجتهم إلى ضبطها ضرورة وكشفهم عن حقائقها فلسفية ولذلك صنف كثير من القدماء كتباً سموها جغرافيا ومعناها صورة الأرض وألف آخرون كتباً في أمزجة البلدان وهوائها نحو جالينوس وقبله بقراط وغيرهما وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النحوي ودعائمه ومعتمد الشاعر في تحلية جيد شعرد بذكرها وتزيين عقود لآلي نظمها بشذرها فإن الشعر لا يروق ونفس السامع لا تشوق حتى يذكر حاجز وزرود والدهناء وهبود ويتحنن إلى رمال رضوى فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه وما اشتقاقه ونزهته وبقدره وحزنه وسهولته فإنه إن زعم أنه واد وكان جبلاً أو جبل وكان صحراء أو صحراء وكان غمراً أو غمر وكان قرية أو قرية وكان شعباً أو شعب وكان حزنناً أو حزن وكان روضة أو روضة وكان صفصفاً أو صفصف وكان مستقعاً أو مستقع وكان جلدأ أو جلد وكان مبخة أو مبخة وكان حرّة أو حرّة وكان سهلاً أو سهل وكان وعراً أو يجعله شرقياً وكان غربياً أو جنوبياً وكان شمالياً سفل قدره ونزر كثره وآض ضحكة ويرى أنه ضحكة وجعل هزأة ويرى أنه هزأة واستخف وزنه واسترذل واستقل فضله واستجمل اهـ.

وبعد فقد نبغ في علماء العرب بفن الجغرافيا أناس لم يزالوا يذكرون كما يذكر الأفراد فمن قدمائهم أبو موسى الخوارزمي وعبد الله بن خرداذبة وابن واضح يعقوبي وابن الفقيه الهمداني وعمر بن رسته وقدامة بن جعفر والجيهازي وعلي بن فضالان وأبو دلف مشعر وأبو زيد البلخي وأبو إسحق الاصطخري وشمس الدين المقدسي وعلي بن الحسين السعودي وأبو الريحان البيروني وأبو عبيد البكري وأبو سعيد الأصبغي وأبو عبد الصيرافي والزمخشري ومحمد بن أحمد الهمداني ومحمد بن أبي بكر الزهري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمري ومحمد المازني ومحمد بن علي الموصلي وأبو عبد الله بن شداد وأبو محمد العبدوي وأبو عبد الله ياقوت الحموي وزكريا بن محمد القزويني وابن سعيد المغربي وشمس الدين الأنصاري الدمشقي والملك أبو الفداء صاحب حمّاق وابن بطوطة وابن الوردي وابن إياس وهذا كان آخرهم من يعتد بأقوالهم فقد جاء في القرن العاشر للهجرة وبعد ذلك انقطع سند العلوم الجغرافية من المسلمين بزهدهم في كل علم ولغلبة الجهل وإن صادف أن جاء من اشغل بالجغرافيا بعد ذلك العهد فيكون ناقلاً عن مصنفات أولئك الأعلام أو مختصراً لبعضها شأن العرب في القرون الثلاثة الأخيرة في جميع ما كتبوا فقد فقدت منهم ملكة التأليف والاختراع وصاروا نقلة عاديين والله أعلم.

ديوان خالد الكاتب

في جملة مخطوطات دار الكتب الظاهرية في دمشق ديوان خالد الكاتب ابن يزيد كتب سنة ١١١٠ هـ بقلم محي الدين الدمشقي السلطي وهو في ٨٨ ورقة تغلب عليه الصحة ومرتب على حروف الهجاء رتب لناظمه ولم يرتبه بنفسه فيما يظهر قال على قافية الباء:

يا أيها المعرض يا ذا الذي ... هب للهوى ديني بطول التعب
 أما تراني دنفاً هائماً ... وجداً بمن صارمني واحتجب
 يا واحداً في الحسن طال الهوى ... والشوق إذ طال إليك الطلب
 عدمت للعبد على أن لي ... قلباً قريباً بك نافي الندب

وقال أيضاً:

القلب مني على شوق وتعذيب ... وزفرة فرحت في قلب مكروب
 لا والذي ذهبت بالنفس لحظته ... وما بعري (؟) من حسن ومن طيب
 ما طول شوقي ولا حزني ولا كمدي ... إلا على مهجتي من بعد تعذيبي
 كم كمن الدهر من سهم يفوقه ... مسدد بدم العشاق مخضوب

وقال أيضاً:

ليست بأول ليلة ... طالت على دفن غريب
 متأوه حب الخليل ... بزفرة الصب الكئيب
 لم يلني بعد فراقه ... ثراً وغصناً في كئيب

وقال أيضاً:

فلو أن خذاً كان من فيض عبرة ... يرى معشياً لأخضر خدي فأعشبا
 كأن ربيع الزهر بين مدامعي ... بما اخضل فيه مزفتي وتعبا (؟)
 على أنني لم أبك إلا مودعاً ... بقية نفس ودعتني لتذهب
 وقد قل لما لم أجد لراحة ... سوى الدمع لما حل أهلاً ومرحبا
 ومعظم الديوان في الغزل قال في قافية الدال:

السنة السقم حتى ملّ عاتده ... يا سالم القلب من شوق يكابده
 ثم لا أرقن فإن المهم أقلقه ... فبات يسهد ليلاً أنت راقده

وباح بالسر لما ذاب أكثره ... شوقاً إليك ولما بان واحده
رثى العذول له حتى بكى معه ... حزنًا وأسعده بالدمع حاسده

وقال أيضاً:

القلب يحسد عيني لذة النظر ... والعين تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت ... كم تنظرين رماك الله بالسهر
العين تورثه هما فتشغله ... والقلب بالدمع ينهاده عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين العين والبصر

وقال أيضاً:

ولما رأيت الدمع غاص إلى الحشا ... وأن فوادي من دموعي في بحر
نظرت إلى عيني لا ماءً فيهما ... فأيقنت أن الدمع تحتها يجري
فلولا استبان الدمع في مضمحل الحشا ... تفجر أنوار الدموع من الصدر
على أن قلبي ينشف الدمع حره ... وأين بقايا الدمع في وهج الجمر
قلنا أن معظم شعره في الغزل والنسيب وأكثره من أربعة أبيات ومن شعره في المديح
قوله يمدح الحسن بن وهب الكتاب:

يا وجه أحسن من ينشئ على قدم ... بحرمة الحسن قل لي كيف حلّ دمي
أما وخدين يسقي الورد ماءهما ... في نسبة تمنع الدنيا من الظلم
ومقلة كلما دارت رأيت بها ... من جوهر اللحظ أسقاماً بلا ألم
إلى أن قل في المديح:

مذهب في الباب الملك أسرته ... أهل الكتابة والألباب والحلم
من بيت دهنقة الأشراف في شرف ... أوفى على مطلع العيوق في الشمم
في ذروة من بناء العز باذخة ... علياء طالت عن الأوعال والعصم

أمضى البرية في خطب وأصوبها ... عزماً وأكتب من أملى على قلم
قال جامع الديوان وهذا آخر ما وجد في ذيله عن نسخة أخرى ند قافية الباء قوله:

يا تارك الجسم بلا قلب ... إن كنت أهواك فما ذنبي
يا مفرداً بالحسن أفردتني ... منك بطول الشوق والحب
إن تك عيني أبصرت فتنة ... فهل على قلبي من عتب
حسيك الله لما بي كما ... أنك في فعلك بي حسي

وشعر خالد الكاتب كما تراه منجم هو إلى شعر المولدين أقرب منه إلى شعر العرب
الذي يحوي فخامة اللفظ وجزالة التركيب وقد استفدنا من ترجمة خالد الكاتب أنه
كان مغرمًا بالصباية وبينه وبين معاصره أبي تمام الطائي ملاحاة وشؤون وخلاصة حياته
كما في فوات الوفيات للكتبي أنه خالد بن يزيد أبو الهيثم الكاتب البغدادي أصله من
خراسان وكان أحد كتاب الجيش ولاءه ابن الزيات الأعطاء ببعض الثغور فخرج
فسمع في طريقه منشدًا ينشد:

من كان ذا شجن بالشام يطلبه ... ففي سوى الشام أمسى الأهل والوطن
فبكى حتى سقط مغشياً عليه ثم أفاق واختلط عقله واتصل به ذلك إلى الوسواس
وبطل. قال ومن شعره:

عش فحيك سريعاً قاتلي ... والهوى إن لم تصلني واصلي
ظفر الشوق بقلبي دنف ... فيك والسقم بجسم ناحل
فهما ما بين وجد وضى ... تركاني كالقضيبي الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة ... فبكاني لبكاء العاذل

ومن شعره أيضاً:

عشة حياتي بورد كأنه ... حدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وراح ولعل الراح في حركاته ... كفعل النسيم الرطب فيالعصن الغض
مصالح الأبدان والأنفس

قد يظن بعض من لا عهد لهم بحالة العرب أيام حضارتهم أنهم كانوا كعرب البادية اليوم لا يكادون يعرفون الأمور الصحية ولا تدبير البدن وأنهم كانوا يسرون متشبعين بفكر القضاء والقدر إن هلكوا قالوا قضاءً وإن عاشوا قالوا قدر. والحقيقة إن القوم كانوا على عناية أكيدة بأمور الصحة وما بقي من كتبهم القليلة المحفوظ بعضها في دور الكتب في الشرق والغرب والمطبوع بعضها يدل دلالة كبيرة على ذلك وأقرب سبل للإشراف على عناية العرب بتدبير الصحة أن يرجع القاريء إلى كشف الظنون فيرى الكتب التي ألقت في هذا الفن بل إلى تراجم الأطباء في القرون الأولى للإسلام ويقراً في طبقات الأطباء لابن أبي أصيعة أسماء الكتب التي صنفوها في تدبير الصحة فقط.

وقد ظفرنا في خزانة كتب السيد أبي الخير عابدين من جلة فقهاء دمشق بكتاب مصالح الأبدان والأنفس لأبي زيد البلخي ولعله الجغرافي المؤرخ المشهور في القرن الثالث: والقطعة مقتطعة من كتاب للمؤلف تغلب عليها الصحة فأحيينا نقله للمقتبس لأن معظم ما تكلم فيه من المصالح كأنه كتب في هذه الأيام قال المؤلف:

تذكرة مقتضبة على سبيل الإيجاز والاختصار من كتاب أبيزيد البلخي رحمه الله تعالى المسمى مصالح الأبدان والأنفس تجنبا فيه بسط أبي زيد وتطويله وإن كان ملذاً غير محلول ومعمول اللفظ غير مغسول إلا أنا ملنا إلى ما يدركه الحفظ وتقصير في الإحاطة به مساهمة اللحظ وبالله التوفيق والإعانة. . .

باب الحاجة إلى تعهد الأجسام وما في ذلك من استدامة الصحة

إن الجسد يحتاج في تعاضد أركانه وتماسك أجزائه إلى تعهد شديد وتفقد بليغ والنفع في ذلك بين أثره عند من دق نظره. ومثاله ما نراه من حال النمر في الأطفال وأنه يتدرج على ترتيب يخفى عن الحس إلى أن يبلغ غاية التمام والشباب ثم يولى تولية تلتطف عن الإدراك حتى يجتمع فيه من أحوال الانتقاض والانتقاض ما تكون جملة محسوسة وإن لم يحسن تفصيله فذلك منفعة التعهد ومضرة الإهمال في خفائهما أولاً ثم ظهورهما أخيراً.

باب في تدبير الأهوية والبلدان

كما يسافر الناس لطلب المعاش فلذلك يجب أن يسافروا لطلب المنازل المحمودة والبعد من الأهوية الفاسدة فإن بعض الحيوان قد يفعل شيئاً بذلك مثل أجناس الطير القاطعة وأصناف السمك المثقلة والهواء كالركب أبداً من طبيعة الماء والتراب اللذين يمر عليهما واختلاف أحوال سكان البلاد في صورهم وأخلاقهم يتولد عن اختلاف هذه الأصول التي هي التراب والماء والهواء، وعلى حسب ذلك يجب أن يرغب الحكيم في إصلاح ما يخصه منها. وأفضل المساكن ما كانت تربته عذبة طيبة غير مشوبة ولم تعد الشمس عن سمت رؤوس أهلها وكان عالياً في إنجاد الأرض وذرى الجبال ليمسج هواؤه ولا تحتقن فيه بخارات المياه وأنفاس الحيوان. ويكون مأوئاً سباحاً من مناقيع طيبة حرّة التراب، وتكون مجاريه بارزة للشمس وحركته شديدة ومسافته من مبداء إلى انتهاء بعيدة ولا يكون بقرب المنزل تربة فاسدة أو مياه أجنة من بطائح ونقائع. وقد يوجد في المواضع الحربة من الأرض تفاوت شديد يجب معه الحرص على طلب الأصلح وإذا دفعت الضرورة إلى نزول بلد هواؤه فاسد أصلح بالخورات الموصوفة. وجلب الماء للشرب من المواضع السليمة والانتقال عنه أصلح، فأما السلطان فتقله في بلاد ملكه يجمع فنوناً من المصلحة منها سرور التره، ومنها تخير الأصوب في تدبير

الأجسام ومنها توزيع مراعاته على كل حد من حدود ملكه، والهواء أقوى أجسام هذا العالم تصرفاً وتصريفاً لما لاقيه وهو الذي يؤدي السري من الأجسام السماوية إلى الأرضية ويوصل قوى ما يمر عليه إلى ما يصل إليه كإيصاله الأصوات والروائح التي لو سكن لعدمت، ويجب أن يكون المبيت في الصيف بإزاء مهب الشمال، والجلوس فيالشتاء بإزاء مهب الجنوب، وفي الفصلين بإزاء مهب الصبا فهي موصوفة بطيب النسيم ولاسيما في السحر ويجتنب مع ذلك ملاقاة كل ريح عاصفة، وإنما خصت الصبا بالحركة في السحر لإقبال الشمس من ناحيتها فترفق أجزاء الهواء بحرما فيتبدد ويطلب مكاناً أوسع فيحدث النسيم المستلد، ولأن الشمس تعطي كل ما تلاقيه في أول النهار قوة عجيبة، وأما الدبور فيجب اجتنابها في جميع الأوقات والأحوال. ويجب أن يجعل الجلوس عالياً عن مهب الهواء الجاري على وجه الأرض المشوب بالأبخرة فإنها تكدر الهواء المتنسم فيختر البدن ويفتره ويضعف قوة الحفظ وينقصه، وتستوطن العلالي والمناظر إلا أن يمنعه منها صميم الحر والبرد فيتعرض عنها الأسرة والفرش المنضدة فياساً على ما قد تقرر من أن المواضع الجبلية أصح مزاجاً وأنقى هواء من السهلية...

باب تدبير الأكنان والملابس

واجب على الإنسان توفية جسمه الخ والبرد من غير مبالغة في ذلك تكسب الترفه وتجلب الضرر عند أيسر تغير من العادة وترقق أديم الجسم والحرارة أوحى إهلاكاً (؟).

والبرودة أشد مضادة وبذلك يهلك الشتاء النبات ويحوج الحيوان الصامت إلى الاستار بدل الانتشار ويجب أن تكون مساكن الشتاء منحرفة عن سنن الرياح متحصنة الحيطان لتكون أحسن. . . تخلل الهواء واسعة رفيعة السمك ليكون

للبخار والأنفاس ودخان الوقود والمصايح !يجل فيها فإنما إن تكاثفت انعكت إلى المسام فكانت لها بشى الغذاء وهذه الصفة في التوسعة وتعلية السمك تلزم في الصيف والشتاء، ويجعل مساكنه مضيئة ما أمكن فإن النفس تزوي من الظلمة وتستوحش قياساً على الليل والنهار وربما احتيج إلى قراءة كتاب في الظلمة فلم يكن إلا بإكرام البصر وإكراهه يكله ويضعفه والظلمة مضرة بالبصر فإن قوام النظر بالهواء المعتدل. وشدة الضوء تضره كشعاع الشمس واتصال الظلمة يطله كما أصاب من طالت مدته في الحبس. ويجب إدفاء بيوت الشتاء بالنار التي يستوي في إحماها جميع أجزاء البيت لتستوفي لذة الدفء من جميع الجهات كفعل الحمام فإن اختفت مقادير السخونة أضرت بحسب خروجها عن الانتظام والاعتدال، إلا أن يحتاج أن يسخن بعض أعضائه فيجري ذلك مجرى العلاج ويتدىء فيدخل في أول البرد إلى الأروقة ثم إلى المواضع التي تليها ثم يتدرج إلى المواضع الغامضة بحسب زيادة البرد كحال الداخل إلى الحمام في النقل بين بيوته فإن لزوم التدريج بين الأضداد واجب، ويتقي برد الحريف أكثر من اتقائه برد الربيع لأن ذلك مقبل وهذا مول، وأعدل الثياب القطن ولذلك لا يصبها السوس ولا تسرع إليها الآفة وهي ملابس الشتاء والكتان للصيف لبرده ولتثيفه العرق بيبسه، والصوف قوي الحرارة مضر بالأبدان التي تكثر حرارتها ويجب أن يختار من الملابس ما كان ناعماً لتلذه حاسة اللمس، ويكون في الشتاء خفيفاً لينع البخار الخارج من الأبدان من النفوذ فينعكس إليها فيكون به الدفء وهذا حقيقة الدفء وبه تدفأ الأوبار أكثر لأن الكثافة فيها أوفر، واحتقان الأبخرة في أثنائها أعظم، وثوب الصيف متخلخل شفاف بضد ذلك إلا أن يكون صاحياً بارزاً في الصيف فيحتاج إلى لباس كثيف ليوقي جسمه الحر، ومن كان محموراً واضطر إلى الوبور فليجتنب الثقيل الطويل الشعر كالشعلب، وليجتنب ما كان ضامماً للبدن كله كالأقبية

ونحوها، وليقتصر على ما يدفى الظهر فهو أشد ما في البدن برداً إلا أن الأعضاء التي فيها الحرارة كالكبد والقلب في البطن دون الظهر ولذلك يكون ابتداء الأمراض عنه أعني الظهر فإن الأخلاط فجة هناك فتبدى الطبيعة بها ولا يغم رأس المعدة فإنه موضع حساس، وللصفراء هناك تسلط ربما آذاه لصوق الوبرية بل يجتهد أن يصل إلى هذا الموضع روح الهواء ما لم يضره، أو يخالف عادته ويتوقى ملاقاته الريح فإن التحرز من البرد فيها لا يمكن في الهواء الساكن فإن اضطر إلى ذلك استكثر من الدثار وتلثم وسد منخريه ولم يستنشق من الهواء البارد بل يتنفس من كفه أو ما يسترد، وإن كان ممن يمشي مشي فسخن جوفه وإن لم يكن ممن يمشي ركب دابة كثيرة الحركة محوجاً له إلى الرياضة وذلك بدنه وقتاً بعد وقت فإن الحركة تقاوم البرد ودليل ذلك ما تشاهده من جهود الماء الواقف قبل الجاري ولا يباشر السفر في هذه الحال، إلا بعد أن يغتذي غذاء خفيفاً غير تام ويجعل فيه كالثوم والخردل، وأنفع من ذلك كله الشراب الموصوف فإنه يسخن الدم في عروقه. ويختار للصيف المساكن الفسيحة الكثيفة الحيطان التي للرياح الهابة فيها محترق وترش وينضح الجسد بماء الورد ويروح عنه فأما السرايب والمواضع العميقة فتجب البتة فإن أهويتها غليظة تكمل وتفتت وإذا جلس في الخيش اسعلى عن سطح الأرض بالأسرة وما يجري مجراها واحتال لوصول الهواء من أعالي البيت ليخفف عنه ثقل الهواء الثقيل المنحصر فيه ويكون الامتكانان في الخيش في وقت الظهيرة لا قبله ولا بعده ويستعمل الأطعمة الحارة في الشتاء فعلاً ومزاجاً والأطعمة الباردة في الصيف.

باب تدبير المطعم

من أخذ من الغذاء قدر حاجته من غير زيادة عليه ولا تقصير عنه دامت له الصحة، وكان مثله كالمصباح يمد من الدهن بما لا ينقطع عنه فبطفه ولا يغمره فيفرقه وأقوى

الأغذية غذاء اللحم، ولذلك صارت السباع التي تغتذي به أقوى من غيرها والأهم التي تفرد باستعماله أشد بطشاً وأكثر غناءً في المصاولة ممن سواها كالأترار ومن أشبههم وأفضله المعتدل الذي لا تغلب عليه كيفية من الحرارة والبرودة والرطوبة واليوسة كلحم الضأن ولذلك صار الإنسان لا ينله وصار يطيب بكل صنعة وبكل طعم يضاف إليه وخص بهذه الفضيلة الاعتدال مزاجه، وخيره لحم الفتي منه وإن يجتنب ما صغر كالأجنة وما قرب عهده بالتاج فإنه يكون لرجاً مولداً للكيوس الفاسد. ويجتنب الضاني القحل اليابس ويقصد السمان دون المهازيل والخصيان دون النعاج. فإن الولد يمس جوهرها ودون الفحول فإن السفاد يؤبس لحمها وكلا المعين يأخذ صفو أجساد الحيوان ويختار للأكل الرقبة ولحم الأضلاع والكف والمواضع المتوسطة للجسد. ويجتنب الرأس وكل ما فيه الأفخاذ وما يليها فإن لحومها غليظة ثقيلة بطيئة الانضام والأعضاء ذوات الأسماء والهيئات ولا خير فيها كالقلب والكبد والطحال والأمعاء والكروش إنما ليست لحمناً خالصة ولحم الطيور بالحكم الأعم أخف من لحوم المواشي وربما ثقل بعضها بالحكم الأخص وينبغي أن يقصد منها الأسرع انضماماً. والحيوان المائي كالبط والغرائق غليظة زحمة بطيئة الانضمام ولا خير في السمك لأصحاب الأبدان الباردة الرطبة وقد ينفع الطري منه المحرومين ويقصد منه المتوسط بين الصغير والكبير ولما كان في المياه العذبة دون البحار والآجام والملوح منه كالقديد من اللحم ولا خير فيهما فإنهما كالشيء الذي ذهب صفوه ولبابه وبقي أثقل وأغلظ ما فيه. وأما الألبان فمناسبة للحم في جوهرها لأن أصلها الدم وتعمها اللطافة وسرعة الاستحالة فللطيفها صارت غذاءً للصغار الذين تضعف قواهم عن المضغ ولاستحالتها صارت أجزاءها قصير سريعاً كالزبد والسمن وأمكن أن تتخذ أصنافاً كثيرة من الأغذية والاقتصاد عليها ليس بمحمود إلا لمن جرت عادته بما وإن جعلت

أدماً وفي الطبخ فإن طبيعتها عند ذلك تترج بطبيعة ما يكون مخلوطاً بها والحموضة فساد عارض في اللبن كما يعرض مثله في الشراب فليجتب الصادق الحموضة منه ما أمكن وبياض البيض غذاء ثقيل وخيم وصفوته غذاء شريف كثير التغذية، وأفضله النيمرشت والذي ينهضم من الحبوب ويستحيل منها إلى الدم أقلها والباقي الفاضل عن الهضم أكثرها وهي في ذلك مخالفة للحم لأنه مناسب للدم بجوهرد سريع الاستحالة إليه، وينبغي أن يجتنب منها ما طبيعته توليد الرياح فكل ما يتولد الرياح عنه رديء بطيء الاضم، وأجود الحبوب للاغتذاء السمين وما تنهى إدراكه ولم يكن فجاً ولا عتيقاً عفناً كالفتي من الحيوان بين الأطفال والمسان ويعتمد لبابها، ويجتنب قشورها، فإن القشور تولد كيموساً غير محمود، والفواكه قليلة الغذاء ومن أفضليها التين والعنب، وهما مع ذلك إذا لم ينهضما ولداً أمراضاً رديئة والإكثار من جميع الفواكه ومن هذين النوعين رديء لإسراع العفونة إليها في المعدة واستحالتها إلى الكيفيات الرديئة ويجتنب قشورها فربما لصق القشر بالمعدة والأمعاء فضر ويهجر كل ما كان فجاً وقديماً عفناً من جميع أصنافها والبقول لا يكاد ينهضم منها إلا ما كان مطبوخاً لأنها عادمة النضج في جميع أحوالها إلا أنها في أول منبتها ألطف ويجب أن يجتنب أكلها بالجملة كل معني بحفظ الصحة فإن دعت شهوة أو ضرورة فالفوذخ (؟) فإنه يقوي المعدة والهندباء فإنه يصفى الدم، والخس فإنه يرطب ويقمع الصفراء ويهجر ما له حرافة وحدة إلا أن يطبخ في جملة الطعام.

صناعة الطعام

إحكام صناعة الطعام أحد قوانين حفظ الصحة لأن الطبيعة تشتهيه فتستريحه وقوام الطعام معيان نوع الغذاء وصنعه وقوت الصناعة أضر من رداءة النوع، لأن الرديء النوع قد ينقله أحكام الصناعة إلى أن يلتذ ويشتهى. والجيد النوع قد يجري أمره

بالضد فيقل ميل الطبيعة إليه ونيلها منه وما فاتته جودة الصنعة حل من الطبيعة محل الدواء المستكرد لا الغذاء المشتبه وربما ولد أمراضاً لنفار الطبيعة منه وقلة احتوائها عليه ويبلغ من الانتفاع بقوة الشهوة أن الضار قد يصير بها نافعاً بجودة الاستمرار له واستيلاء القوة عليه حتى أن المرضى ربما اشتبهوا شيئاً رديئاً فأصلحت قوة الشهوة فساد مزاجه فقل لذلك الاستمرار به، وأحوج الناس إلى هذا الباب من اعتاده ومرنت حساسة الشم منه عليه وارتاضت مذاقته به والجفاة الطبع أقل حاجة إلى التدقيق في هذا الباب أولاً لجفاء التركيب، وثانياً لفقد العادة في الارتياض لمعرفة الطيب وغيره فقليل الصنعة كثير عندهم، وثالثاً أن كثرة حركاتهم تجود هضم معدتهم حتى يستمروا من الخبز الفطير ومن اللحم ما ناله الأشمام ولا يستضرون بشيء منه بل يناسبون الحيوانات الصائمة في أكثره وأولى الأشياء بالنقية فيه الخبز لأنه أصل الغذاء والراتب منه وأصوب ما يستعمل فيه المبالغة في إنضاجه فإن القليل النضج منه يولد فيالبدن أخلاطاً غليظة وأدواء خبيثة، والخبز الحشكار أكثر حرارة وأسرع هضماً لحرارة نخاله.

والحواري أبطأ هضمًا وإذا هضم كان أكثر غذاءً وأفضل جوهرًا وبالجملية فكل ما فاتته النضج فالآفة فيه على البدن عظيمة جداً ولا يتناول منه الحار لوقته فإنه بمثابة مالم يدرك ولا اليابس فإنه بمثابة القديد وكلاهما إذا أصابه الماء في المعدة انتفخ وربما كما يصيهما إذا صب عليهما الماء خارجاً عنه، بل ما كان مخبوزاً ليومه أو غدد ثم اللحم ومن التدبير فيه إنضاجه ويتجاوز ذلك فيمن ضعفت معدته إلا أن يهرا له قهرياً، فأما من قوي هضمه كرجال الحرب فالصواب أن يتناولوا من الخبز الفطير ومن اللحم المشوي ما لم ينته نضجه ليتولد لهم اللحم الصلب الكثير المحتمل للألم فإن اختمار العجين وقهريه اللحم يقلل قوتهما، وما كان من الحيوان رطباً كالسمك والحملان

الرضع شوي ليقبل رطوبته وما كان مسناً طبخ ليقبل رطوبة الطبخ يوسته، والشواء يؤبس الطبع والطبخ يحله، وما عمل بالكانون أخف مما عمل بالتور، لأن التور يغمه فيرجع إليه البخار فيكبه ثقلاً ووخامة وأغباب شواء التور أصلح ويستعمل بعد شوق إليه، وشهوة له تعين على هضمه ويطيب الطبخ بلباب البصل والحمص ومآثمها دون قشورهما وجملة جرمهما وباجملة فاللب من كل شيء أكثر نفعاً وأقل ضرراً من القشور، ويحسب الأشياء الحريفة كالخردل والثوم فربما لذعت آلات الغذاء وقرحتها كما تفعل في ظاهر البدن قلت وهذا الحين فيه قول يدل على أنها تقرح الظاهر وتعفن الباطن وإذا انضمت الأشياء اللذاعة أحدثت في الكيموسات كيفية حادة حريفة مضرة جداً لأن الذي تفعله استحالة كيفية الدم أضرم مما تفعله كميته ويجب أن يحسب التي منها حسماً وأصلح الأطعمة ما لم يغلب عليه طعم فإن الطعم الغالب يدل على الكيفية الغالبة وأشد الطعوم ومشاكله للدم الحلاوة، ولذلك تشتد شهوة الصبيان لها لأنهم في سلطان الدم والحلو الأصلي كالتمر والعسل أشد تسخيناً للدم وإحراقاً له من الحلو الدسم كالفالودج ونحوه وهذه المركبة أقل غائلة في تنوير الحرارة لأن الدسومة تقاوم تلك السورة إلا أنها أثقل على المعدة لمكان الدسومة وشرب الماء على الحلو الأصلي أنفع من شربه على المركب لأن الماء يمازج الأصلي فيكثر حلاوته ويعدله ولا يمازج الدسم فيعقب لذلك تخمماً، والأصلح في تناول الحلو استعماله عاباً وبعد الشوق الشديد ثم الإقلال وقصد اللطيف كالمعول من السكر الطبرزد واللوز والحامض يفتي الشهوة إلا أنه أقل غذاءً من الحلو وهو مضر بالعصب، ويعق! ب الهزال والنحافة، وأصلح الحموضات الحل فإن فيه تحليلاً وتلطيفاً، والمالح معين على الهضم ويعتبر ذلك من تأثيره في الأشياء التي يطيب بها فيدفع العفونة والفساد عنها وهو ينوب عن الأفوية الحارة مع سلامته وقلة غائلته، ويحسب أكل الطبخ الحار الذي في بقية عليانه

ولم تفارقه الأجزاء النارية فإنه كالشيء الذي لم يدرك، والغاب والفاقد رديء لا خير فيه. . . .

أوقات الأكل

أصلح أوقاته وقت الحاجة إليه وتجنب استعماله بالعادة في وقت يعينه في كل يوم أو بالمساعدة أو بالشهوة الكاذبة فإنه يحدث حينئذ أمراضاً خبيثة والغذاء والعشاء يصلحان للعامة ويجب أن يخفف الغذاء لثلا يشغل البدن عن التصرف في المعاش ويستوفوا العشاء لأن النوم يتبعه فيعين على هضمه فليل خاصة في تجويد الهضم ليست لنوم النهار إلا أن العشاء ربما أضر بالرأس والعين لأن قوة الهضم تحدث أجرة كثيرة، فأما الملوط فصدر فخارهم مشغول بمهامهم وهم يستكثرون مع ذلك من الألوان فلا يبقى فيهم فضلة لأكلة أخرى، بل الراجب أن يستقبلوا الليل بعد النوم الذي يعين على هضم الغذاء وهم في نهاية الجسام والنشاط للمهر والموانسة وإن دعت أحدهم نفسه إلى أكلة ثانية وليس ذلك بصواب له فليحذر اللحم والدسم ويقتصر على الخبز لا يكاد يعرض منه تخمة ولا يشغل إلا أن يفرض في الإكثار منه ويجعل أدمه في هذه الحال من الحموضات والملوحات وليحذر كل الحذر ويتوقى كل التوقى أكله بين شرايين فإنه مجرب الضرر ولا يكاد مستعمله يسلم منه.

تقدير الطعام

الحمية أصل الطب. وقلة الأكل أفضل العلاج، وحد ذلك أن يمسك عن الأكل وقد بقيت من الشهوة بقية تدعو إلى الازدياد. فإن الطعام يربو ويتفخ في المعدة بعد أكله فإذا أملت به ولم يترك فيها فضاء لرتود أحدث الكظة وأوجب التخمة وتولدت عنه الأمراض الرديئة. ومن ضعف هضمه، جعل أكله دفعات وخففه واقتدى فيه بتدبير الطبيعة في تفريقها غذاء الأطفال وتقليله في كل مرة، وينبغي أن تكون الجرأة على

الأكل في الشتاء أكثر لافترام الحرارة إلى غور البدن ويعمل في الصيف ضد ذلك ويقصد في زمان الصيف اللطيف من الأغذية كالبرارد.

ترتيب ألوان الطعام

يجعل الأخف قبل الأثقل ولا يتبدى بالدسومة فتفقر الشهوة وتلطف المعدة بل يقدم الحامض بالحل فإنه يحلل أجزاء ما لا قاد فيفتق الشهوة ويمكن لما سواه ولا يقدم الشيء الحلو فإن الطبيعة ليها إليه تستولي عليه فينقطع به عما سواه ولا يتبدى بالشواء فإن القوة الهاضمة إذا تعلق به قهرها فاقصرت عليه فلم يمكن الاستكثار من شيء بعده ومن كانت معدته باردة فيجب أن يعمل الفاكهة بعد الطعام بساعة جيدة ليلحق خفته الثقيل المنهضم قبله.

صفات الأكل

يجتنب تعظيم اللقم وسرعة الأكل. وإن لا يخلط في الأطعمة فإن في هذا الأدب فوائد ولها أنه أبلغ في الاستيفاء من الطعام وأهون على الهضم الجيد وأبعد من الكظة لأن الذي يصل إلى معدته الشيء بعد الشيء من الطعام تستولي عليه القوة الهاضمة وتمكن في الهضم، واللقم المتابعة تقبر هذه القوة وتغص المعدة فيتولد عنها الفواق والجشاء المؤذي المتقبح وكذلك حال الماء في امتصاصه والعدول عن عبه وتأني الأكل أبعد من مشاهدة الحيوانات التي تتناول أغذيتها بالنهم والشه وأحرى أن لا يستقدر الإنسان وتعاف الأنفس مؤاكلته ثم إن كانت عنده دعوة أو جماعة كان تأنيه أمكن لهم في تناول حاجتهم فمن رزق هذه العادة والأفليس نفسه عليها، ويجتنب الأكل على حال انزعاج من النفس وما ينسيه ثم يتناول الغذاء بعده ويسر نفسه بمحادثة المواصلين، ومؤانسة المنادين فإن ذلك معين على نجوع الغداء ولذلك كانت الملوك لا تنام ولا تشرب ولا تأكل إلا على سماع ملذا أو حديث ممتع وإن لم يتمكن

من النوم بعد الأكل فلا بد من اضطجاعة أو تكأة فإن الانتصاب والقعود تعب والتعب يمنع من تمام الهضم.

الباقى للآتي

إسبانيا والعمران العربي

تتمة ما في الجزء الماضي

دثرت المدنية الإسلامية الباهرة لا بأيدي المسيحيين الذين كانت تخشى بأسهم بل بصنع أناس من المسلمين أنفسهم نسفوها نسفاً وأعني بهم المرابطين. ولم يلتجئ أمراء العرب في الأندلس إلى هؤلاء الإفريقيين القساة المتبريرين الذين حملوا إلى الإسلام روح تعصبهم المنبعث من ضيق عقولهم الجاهلة إلا بعد أن أوجسوا خيفة على حياتهم وزاد سوء ظنهم في العواقب. هلك المعتضد ونفسه تحدثه بالشر الذي يجرد على بلاده وأخلافه. وبينما كان ألفونس السادس ملك طليطلة إذا هو قد أصبح ملكاً على إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغدا الأندلسيون مهددين من جهتين فرأوا أن يستسلموا لأبناء دينهم من المرابطين ليدفعوا غارة المسيحي عنهم وهو عدوهم القديم.

وفيسنة ١٠٨٦ هزم يوسف (بن تاشفين) وعصاباته الإفريقية ألفونس السادس في وفعة الزلاقة شر هزيمة وفي سنة ١١٠٠ كتب لهذه العصابات أن تطرد عامة ملوك الطوائف أو تقتلهم وفي عام ١٠٢٧ استرجعوا مدينة سرقسطة وخضعت إسبانيا كلها لملك مراكش.

وإن الثلاثة الملوك من المرابطين الذين استولوا على الأندلس منذ سنة ١١٠٠ إلى ١٤٤٥ وهم يوسف وعلي وتاشفين كانوا على شجاعة فيهم ضعاف المدارك موسومين بالتعصب لا وقوف لهم على اللغة بل ولا على آداب العرب وأخذوا بتحريض الفقهاء يضطهدون الشعراء والعلماء والفلاسفة باسم الدين حتى اضطروا

هؤلاء أن يصتروا أو أن يفروا بأنفسهم إلى بلاد أعدائهم القدماء ملوك قشتالة ونزلوا مدينة طليطلة حيث توفروا على تخريج النصارى يعلمونهم من أحكام الترقى ما كان ينقصهم للحاق بالمسلمين.

ومن الغريب أنه لم ينشأ على عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني على كثرة حرصهم على المعارف علماء متجرون وفلاسفة عظام في البلاد الأندلسية المستعربة. وعلى العكس كنت ترى الفلاسفة يكثرون في عهد الشدة أيام أخذ المعصرون من أهل الدين يطاردون كل من يجرأ في أرض الأندلس على مخالفة مذهب مالك. نعم كانوا ينبغون على حين غرة من أولئك المتطعين وينيلون إسبانيا العربية مجدداً لم يبلغه المسلمون أيام كانوا مشاركة صرفاً. فجاء الأندلس أمثال ابن باجة وابن الطفيل وابن زهر ولا سيما أبو الوليد ابن رشد الذي تخرج بابن باجة وانتمى إلى ابن الطفيل وصحب ابن زهر.

هذه الفلسفة التي انتقد عليها فيما بعد لخلوها من الإبداع قد كان لها شأن عظيم في حضارة القرون الوسطى بأن كانت واسطة النقل إلى الغربيين الذين أضاعوا حتى الاسم من معارف اليونان على ما تلقته عنهم مدرسة الإسكندرية وبفضل هذه المدرسة تسنى لعلم الفلسفة واللاهوت (علم الكلام) في القرون الوسطى في الغرب أن تتصل التقاليد المدرسية بآداب النهضة.

كان للشعراء مقام كريم بين الناس بما فطروا عليه من التصورات، فكانوا على طبيعتهم الشرقية لا يأتون ما يخالف روح الإسلام وكان الملوك بما فيهم من الاستبداد الطبيعي والأغراض السياسية يعتقدون الفلاسفة. هذا إلى ما هنالك من حقد المتطعين والمتفقهين وما جبل عليه الشعب الإسباني من أخلاق التعصب وكان الإسبان ياتحاهم الإسلام يزدون المسلمين تعصباً إلى تعصبهم.

وكان عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني من التسامح على جانب مع العلماء ولقد اقم
 المنصور حاجب هشام الثاني بأفكاره الفلسفية فلم يدفع عنه هذه التهمة إلا بتكبير
 مسجد قرطبة ونسخ القرآن بيد، وإدراج الهدايا والعطايا على العلماء والفقهاء
 وتخريب خزائن كتب الحكم الثاني لأنها كانت عبارة عن كتب فلك وفلسفة وجغرافيا
 وطب فأحرقت وباحرقها بادت إلى الأبد كنوز لا تقدر بثمن ونال لقاء ذلك رضا
 المتطعين فخلا له الجو في قصره وأخذ يشغل بالدروس التي يحظرها على الناس ويشتد
 في الإنكار عليها. وما أتاه من هذا القبيل سياسة قام به المرابطون مدفوعين إليه بعامل
 من الاعتقاد ونابل من أمرجتهم.

فكما أحرقت سنة ١١٥٠ كتب ابن سينا في بغداد بأمر الخليفة رأينا بابل باجة يسجن
 بدعوى المروق من الدين ويضطر ابن واهب من إشبيلية أن يخلى عن دروسه الفلسفية
 إبقاءً على حياته ويقتل ابن حبيب من أهل تلك المدينة لاقامه بالفلسفة. ويضطهد ابن
 الطفيل حتى يضطر إلى الاعتراف جهاراً بإيمانه الصحيح ومعتقداته الخالية من
 الشوائب. وهكذا انقضى زهاء قرن والكتب تحرق في أطراف إسبانيا الإسلامية وبها
 بيد أثمن ذخري من الآداب العربية.

حاول السلطانان الأولان من الموحدين وهما عبد المؤمن ويوسف وكانا يميلان إلى
 الحرية أن يخففا من تعصب عصابتهما ومن تشدد المتنطعين من المتصوفة حتى حظر عبد
 المؤمن إحراق الكتب على نحو ما كان يفعل المرابطون لإبادتها وأحسن معاملة ابن
 الطفيل وابن زهر وابن باجة. وأغدق يوسف وكان أعلم أمراء عصره على ابن الطفيل
 من إنعامه الشيء الكثير وقرأ عليه فلسفة ابن رشد وفوض إليه أرقى المناصب ومنها
 منصب القضاء في إشبيلية ثم أقامه طبيباً أول فيقصره (١١٨٣) ووسد إليه منصب
 قاضي القضاة في قرطبة على نحو ما كان أبوه وجده. وأفاض عليه يعقوب المنصور بالله

ما كان له من أسلافه وزاد عليه ولكن إرادة شخص ولو كان ملكاً لا تقوى على صد هجمات تيار الرأي العام ولا سيما في عصر كان فيه سلاطين الموحدين مضطرين إلى إضرام جذوة التعصب فينفوس رعاياهم المسلمين من الأندلسيين لمعاكسة ملوك قشتالة وأراغون الذين كانوا على الدوام يتقدمون إلى الأمام.

وفي سنة ١١٩٦ بعد وقعة الأركوس التي كتب فيها النصر للمنصور على ألفونس التاسع صاحب قشتالة قويت شركة الحزب الديني في القصر السلطاني ونكب ابن رشد على شيخوخته نكبة هائلة تناولت كثيرين من العلماء والأطباء والشعراء بل والفقهاء متهمين بخرية الفكر والخروج عن مقصد الجماعة. وطرد العامة ابن رشد على أشنع صورة من الجامع الأعظم في قرطبة وكان ذهب إليه لأداء الصلاة مع ابنه عبد الله الذي كان من أعظم عمال تلك المدينة ونفي إلى مدينة لوسنا اليهودية. وفي غضون ذلك صدر أمر من المنصور يحظر فيه على مراکش وإسبانيا درس الفلسفة المضرة والعلوم وما يعلق بها ولم يستثن من هذا الحظر إلا الطب والحساب ومبادئ الفلك. وعهد بتنفيذ أمره إلى ابن أخت ابن زهر وكان فيلسوفاً كخاله فصدع بالأمر والخوف رائده. ثم إن ابن رشد نال الرضا من سلطانه قبل موته بأربع سنين وعاد المنصور يتوفر على دراسة ما كان يحظره على أمته من العلوم ولكن بعد أن ضربت الفلسفة الإسبانية العربية ضربة لا يجبر كسرها.

وإذ طردت العلوم الإسلامية من بغداد ومراكش وإسبانيا لم يبق لها غير مصدر واحد تلجأ إليه في طليطلة حيث طلبت حماية الدول المسيحية التي هي ألد أعدائها وكان سبقها إلى تلك العاصمة كثير من المسيحيين والإسرائيليين من أهل الأندلس فرعوا إليها لتحبي حياتهم ومعتقداتهم. وإذا كان المرابطون والموحدون متعصبين بالفطرة اضطروا أن يتظاهروا بالتعصب سياسة أيضاً فكانوا يعيشون في جهاد دائم لمقابلة

المسيحيين من سكان الشمال الذين لم يكونوا دوفهم في الانغماس بحماسة التعصب أيضاً للدفاع عن كيانهم في بلادهم ولم ير أولئك المرابطون والموحدون وسيلة إلى بث دعوتهم في نفوس أبناء دينهم أحسن من إثارة روح التعصب في جمهور العامة المتعصب وليس من سبيل إلى إقناعهم بالتحسين دينهم لهم واضطهاد غيره من الأديان. فلا عجب من ثم إذا عومل نصارة الأندلس بأقصى الشدة وخربت كنانهم وصودرت أموالهم وغدوا على الدوام مهددين في حياتهم. ولما عيل صبرهم استصرخوا الفونس السابع المعروف بحبه للحرب والضرب فاقصر من نجدتهم على غزو المسلمين في عقر دارهم ولكن بدون طائل إذ قاسى مسيحيو الأندلس من تلك الغزوات ضروب النكبات فقتل بعضهم أو نفى إلى إفريقية (١١٢٥) على صورة متوحشة بحيث هلكوا بأسرهم قبل أن يبلغوا متفاهم.

وجرى استئصال شأفة النصارى سنة ١١٣٦ على أقصى وجه حتى لم يبق منهم بقية في الأندلس ومن نجوا من الموت والتشريد لجؤا إلى قشتالة. وهكذا أسدى المرابطون والموحدون لنصارى الشمال معروفاً عظيماً غير متوقع بما توفروا على القيام به من العنف حتى نقضوا العهد الذي كان عقد بين إسبانيا الجنوبية والمسلمين العرب وقبوا الشعور الوطني والتحمس الديني في الأندلسيين وجمعوا بين الإspanيين من سكان الشمال ومن سكان الجنوب بما بينهم من أواصر الجنس والدين فقاموا قومة رجل واحد في وجود المسلمين مسوقين إلى ذلك بحب الانتقام المتأصل بين الإسلام ومن يخلفه. وما كان الاضطهاد الذي نال أهل الصناعات الوديعين من المغاربة بعد خمسة قرون إلا جواباً طال التفكير فيه ودعت إليه قسوة المرابطين والموحدين وكان نتيجة تعصب مماثل لذلك التعصب ورأى سياسي مشابه لتلك الآراء وإن كان إلى الصراحة أقرب.

ولم يلبث امتزاج الشعوب الإسبانية على اختلاف العناصر والدين إن أثر الثمرة المطلوبة فافطارت قوة الموحدين في وقعة لاس نافاس دي تولوزا (١٢١٢) وسقطت قرطبة (١٢٣٨) وإشبيلية (١٢٥٤) وبلنسية ومرسية في أيدي الإسبانول وغدا هذا الاسم بعد حين جامعة دينية أكثر مما هو جامعة جنسية لأن جميع من لم يرتدوا عن الإسلام دخلوا في سواد العرب البربر وامتزجوا فيهم أي امتزاج. وإن المغاربة الذين رضوا بأن يعيشوا في الأندلس عيش التبت إلى القرن السابع عشر ليصعب عليهم أن يبرهنوا على أنهم من دم إفريقي ثم أنه يعذر على الإسبانول أيضاً أن يذكروا أنسابهم لأن بعضهم محضرمون خلاسيون فيهم الدم العربي وقليل منهم سرى إليهم دم البربر إبان الفتح وآخرون أصبحوا إفريقيين صرفاً عند زوال ذاك السلطان وخفوق راية الإخفاق على ربرخ الأندلس الإسلامية.

ومما قوى أمل المسلمين في المستقبل وزادهم نشاطاً كثرة عديدهم فقد طرد منهم فرديناند الثالث بعد دخوله إشبيلية زهاء ثلثمائة ألف مسلم من أهل هذه المدينة فلجؤا من إشبيلية إلى قرطبة وجيان وبلنسية. وغرناطة حيث بقيت دولة بني نصر مائتين وخمسين سنة أيضاً وعلى هذا كانت غرناطة آخر ملجأ للعمران العربي أزهر أي أزهار عندما أوشك بالانقراض فرأت حدائق الحمراء البهجة كبار الشعراء والمؤرخين من العرب أمثال محمد بن الخطيب وابن خلدون يجتازانها هما وابن بطوطة الجغرافي العظيم. كان من نتائج وقعة لاس نافاس دي تولوزا أن حررت إسبانيا من رق العبودية للمسلمين. وأدرك ملوك قشتالة أن ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وأنهم في حاجة بعد إلى أن يتعلموا من معلمهم القدماء ومنافيتهم الألداء (المسلمين) فحاول ألفونس العاشر خليفة القديس فرديناند الثالث واكن أوسع ملوك عصره مدارك أن

يعمل لإسبانيا المسيحية ما عمله العرب لإعلاء شأن الإسلام وذلك بالأخذ بأحسن ما في الحضارتين ومزجهما بالحضارة الإسبانية.

فأسس سنة ١٢٥٤ في إشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى إلى عاصته العلماء من جميع الملل والأجناس ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار أحسن المعارف النافعة وهي أقرب إلى التسامح من المدرسة الأولى إذ كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني. وذلك لأن الإسرائيليين على سعة آمالهم في أحكام صلات التآلف بينهم وبين مسلمي الأندلس وما عرفوا فيه من مرونة الأخلاق قد عوملوا أسوأ معاملة وأوذوا في أنفسهم كما آذى المرابطون والموحدون نصارى تلك البلاد. فقتل الإسرائيليون ونفوا ومن سعادهم أن لجؤا إلى أرض ملوك قشتالة وأراغون الذين أحسنوا استقبالهم وكان لهم في بلاطهم شأن مهم أواخر القرن الخامس عشر فكان منهم أمراء الخزائن ومستشارون وأطباء للملوك. وبلغ عددهم في طليطلة أيضا زهاء اثني عشر ألف شخص. وظل اليهود إلى ذاك الحين أقدر التراجمة على نقل الحضارة العربية وبما ترجم منها إلى لغتهم نجت آثار تلك الحضارة لأن الموحدين والمرابطين أخذوا يبددون كتبها عامة. وكان زان بن زاكت ويهوذا هاكوهن والريان زاك هم الذين نقلوا لألفونس العالم معظم كتب التاريخ والفلسفة والفلك عند العرب مع الشروح التي علقها عليها الشراح. وأتى دهر ظن فيه أن ألفونس العاشر سيحي إسبانيا بعد موته.

ظهرت الكنيسة أنها طمع في تصير المسلمين بالبرهان فوضع أحد الرهبان الدومينيكيين واسمه رامون مارتي أول معجم عربي باللغة الإسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٢ — ١٣١١ امتدح البابا كليمان الخامس في إحدى انجوام الدينية من إنشاء كرسي لتعليم العربية في مدرسة سالامنكة. وفي أواسط القرن الثالث عشر كان

الدومينيكون مثلاً لغيرهم بإنشاء مدارس لتعليم اللغات الشرقية ليقف رهبان من أهل الغيرة على لغات غير أبناء دينهم ومعتقداتهم وبياحثوهم ويجادلوهم. وقد أنشأ يعقوب الأول صاحب أراغون مدرسة مثل هذه في ميرامار إكراماً لثلاثة عشر راهباً فرنسيسكانياً وأخذ المجمع الديني في طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص ينقطعون إلى دراسة اللغة العربية ليقاوموا الفقهاء والمشايع بسلاحهم. وعلى هذا التقليد ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكان إلى القرن الثامن عشر في إسبانيا هي القائمة بدعوة الاستشراق أي درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه. كانت وطنية الإسبانين متشعبة بروح السخط وحميتهم قائمة على العصب وعدم التسامح وسياسة ملوكهم إلى الشدة ولذلك نالوا ما طمحت إليه نفوسهم من استباح المسلمين بدراسة علومهم وقد نشأت من هذا الاحتكاك حضارة ذات قلب وإبدال مركبة من حضارتين مهمتين بغناهما ثم استقل الإسبان بعلومهم المرنّة الشديدة المروضة وأصبحوا مصدر حضارتهم ومقرري مدنيّتهم.

اعترفت إسبانيا بما هي مدينة به للحضارة العربية بما حفظته لها في مدارسها من الشأن حتى بعد أن تحررت من قيودها. كان في سالامنكة التي استحققت أن تجعل في مصاف باريز وأكسفورد وبولونيا إحدى المراكز العلمية الأربعة في الغرب سبعون حلقة للتدريس وربما بلغ عدد طلبتها سبعة آلاف في القرن السادس عشر ولم تنل هذه الشهرة الطائرة أولاً إلا لكونها بتأثير العلم العربي أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب التي كانت إلى ذاك العهد مغشاة بتجارب تافهة وعديلات مضحكة من نحو السحر والطلسمات. ولم يكن في سالامنكة في أواخر القرن الثالث عشر على عهد البابا بونيفاس الثامن غير خمسة وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة ليونانية وأخرى للعبرانية وثالثة للعربية.

ولقد أصيبت هذه الحركة المثمرة المباركة بضربة شديدة عندما عاد ملوك الكاثوليك فاستولوا على غرناطة سنة ١٤٩٢ واستصفوا أرض إسبانيا وأبادوا آخر مملكة إسلامية من شبه جزيرة الأندلس. ومنذ ذاك العهد أعادت حرب لا على دين أصحاب تلك البلاد ونعني بهم المسلمين بل على جنسيتهم ومدنيتهم. وقد جرت العادة بأن تلقي تبعة هذا العمل على رجال الدين من الإسبانيين ممن كانوا في الحقيقة متفانين في تنفيذ هذا العمل وذاهبين بفضل الربح فيما قاموا به من الذرائع على أن هذا الحكم لا يخلو من غلو ووضع المسؤولية في غير موضعها وذلك لأن ملوك الكتلكة مثل شارلكان وفيليب الثاني وفيليب الثالث الذين نسب إليهم الفخار بهذه الأعمال هم اليوم يروون بالقسم الأعظم من العار. فكانت الشدة فيهم منبعثة عن رأي سياسي كاذب أكثر مما هي عن تعصب ديني ويراد بها التوسع في الملك على وجه مخيف. فطمع الإسبان بعد الوحدة السياسية والملكية التي نالوها بالصبر عليها قروناً أن يضموا إليها الوحدة الأدبية المتناهية في الخيال وهي التي كان يتصورها لويس الرابع عشر بفكره القاصر وانتهت بفسخ الأمر الصادر في نانت. وكان الفكر السائد منذ عهد فرديناند الكاثوليكي إلى فيليب الخامس بين جميع حكومات إسبانيا أن يعملن كلهن على تطبيقه على ضعاف المعارضة بالشدة التي جرين عليها في الأزمان السالفة فكان يقاوم أمراء المسلمين في الأندلس مقاومة ليس بعدها مقاومة. ومثل ذلك كان يجري على الإسرائيليين بصورة أكثر شدة ولكن لا تكاد يشعر بها لأن اليهود كانوا عبارة عن طائفة أقل من المسلمين وكان الغضب والأحقاد الشخصية تصب عليهم في الفترات مقطعة ثم زاد التعصب الإسباني وعجل بالقضاء على كل مخالف. وأكد فرديناند وإيزابيلا للمعاربة في غرناطة والأندلس بأنهم في حل من البقاء في أرض إسبانيا وأن يكونوا أحراراً في دينهم على شرط أن لا يدعوا إليه وأن تجعل جميع

مساجدهم كنائس كاثوليكية. ولما قضى نجه الكردينال بدرو كونزالز دي مادوزا سنة ١٤٩٥ قام الكردينال كسيمنس دي سيسروس رئيس أساقفة طليطلة ومن قدماء الأساتذة ومن الشاهدين على ما قالته إيزابيلا وحاكم إقليم قشتالة ينقض العهد الذي تم مع المسلمين رياءً ونفاقاً. وكان هذا الرجل معروفاً بسعة نظره وقوة عارضته في العمل بكل رأي يراه صواباً فيدعو على العمياء لتأييد الحكم المطلق للمقام البابوي أو للحكومة الملكية.

وأنشأ القوم بعد ذلك لا يكتفون بدعوة المسلمين إلى النصرانية بل يتطلعون إلى تعييدهم أو طردهم فجرى تعميد ألوف في إشبيلية وطليطلة وقرطبة وغرناطة من أولئك البائسين من المسلمين ممن اضطرقهم المصلحة والخوف واحترام التغلب وحب الأرض التي ولدوا فيها أن يرضوا بخير معتقداتهم وقلوبهم منكراً عليهم أعمالهم ثم تكفل ديوان التفتيش الديني بمراقبتهم لتبين له طهارة اعتقادهم. ومنذ سنة ١٥٠١ — ٢ طرد من قشتالة ومملكة غرناطة كل من ظلوا محافظين على الإسلام ولم يعد للدومينيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية لتمكنوا بها من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لأنها أفسدت أفكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين إذ قام في أذهانهم أنها خطيرة عليهم. ولذلك رأينا الكاردينال كسيمنس عندما أسس أو أحيا سنة ١٤٩٩ كلية الكالادي هنار استكف أن يضيف إلى دروسها حلقة لتعليم العربية مع أنه نجح في تأسيسها على منوال مدرسة سالامنكة وجعل فيها حلقتين لتدريس العربية واليونانية فرأى أن تكون هذه المدرسة الجامعة لتلقي علوم اللاهوت وأن تبت الدين الذي يريد الملوك والبابا أن يروه غاماً موطداً الدعائم من أقصى إسبانيا إلى أقصاها. وكان أعظم أستاذ في سالامنكة في القرن السادس عشر فري لويس دي ليون

شاعراً لاهوتياً وفيلسوفاً مستشرقاً يحسن اللغة العبرية كل الإحسان ولكنه يجهل العربية.

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد أن أحرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ولاسيما من المصاحف المخطوطة أن تباد كتب العرب من بلاد إسبانيا عامة فتم ذلك بغيرة عمياء مدة نصف قرن ولولا تلك المترجمات إلى العبرية واللاتينية لقضي على الحضارة العربية بجملتها التي امتد رواقها على إسبانيا مدة ثمانية قرون ولم يبق لعينها من أثر. وكاد ديوان التفتيش الديني على ما أخذ به نفسه من إبادة كل أثر للعرب أن يجعل طعاماً للنار تلك المخطوطات العربية التي حفظت في خزانة كتب الأسكوريال لولا أن تطف الماركيز فيلادا وحال دون إحراقها. أما متصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين فلم يكونوا يستطيعون إبداء أسفهم إلا سرا وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أي الإسبانية المكتوبة بحروف عربية دليل على تعلق أولئك المتصرة بقديمتهم.

ولم يحظر فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ على متصرة المسلمين حمل السلاح فقط بل منعهم من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن ترع من أسمائهم التراكيب العربية ومن أجسامهم الألبسة الشرقية ليدل بذلك على أنه يريد مزجهم في سواد أبناء المذهب الكاثوليكي. ثم إن قدماء المسيحيين من الإسبان كانوا كل حين يحقرون أولئك المتصرة على نحو ما كان العرب قديماً أيام عزهم يزددون بالمولدين ولما ضاقت صدور المغاربة انتفضوا على احكومة فشنت ثملهم في أودية البوجاراس وبعد مقاومة شديدة نفى أولئك المتصرة أو سجنوا في أواسط بلاد إسبانيا وأصبحوا أمراء (١٥٥٨).

سيم المسلمون في إسبانيا سوء العذاب فحاولوا ثانية أن يشقوا عصا الطاعة على عهد فيليب الثالث وعندها نفوا آخر مرة وعددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية

سخيفة. ولم يبق إذ ذاك من الحضارة العربية واللغة العربية غير ذكرهما البعيد وأصبحتا مزدريَّيَّهما. وهنا لا يسعنا إلا الاعتراف بأن الإسبانول عاملوا الكتب والناس على نحو ما جرى المرابطون والموحدون وكانوا يعمقون أكثر لو لم يستعصوا عن المدنية التي قضوا عليها بمدينتهم التي كانت إذ ذاك في أوائل أنبلاج فجرها فإن تخالفت النتيجة فالطرق إليها سواء في اللوم والتقريع.

ومما لا يقبله العقل لولا أنه حقيقة أن إسبانيا التي كان للمدنية العربية عليها أيادي بيضاء قد بلغت بها الحال إلى أن تناستها بالكلية. فكان يزهد خلال القرن السابع عشر والثامن عشر بالمرّة في تعليم اللغة العربية في أرض إسبانيا ولم يكن له أثر إلا إذا كان على طريقة سرية إفرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً وربما اقم من يتعلمها بالإلحاد ولم تبق مدرسة ترينك لرهبنة الفرنسيسكان في إشبيلية من أساليب تعلم العربية إلا أثراً ضئيلاً فكان يكفي الطالب منها أن يلفظ الأسماء المسحولة ليهذب بعد إلى إفريقية وآسيا داعية للنصرانية ومن كان يحب التقدم منهم في معرفتها مجذوباً بما حوت من الآداب الغنية لم يبلغ شوطاً كبيراً في معرفتها إذ لم يكن يراها أحد عنوان مجد لإسبانيا الكاثوليكية في عصره.

ومن العدل أن يقال أن إسبانيا كانت منذ عهد فيليب الرابع إلى شارل الثالث تتخط في المسائل الشاقة سواء كان في شؤونها الداخلية أو الخارجية فلم يترك لها انحطاطها السياسي والعملي وقتاً ولا قوة لدرس العربية والتفرغ للبحث في تاريخ الحضارة الإسلامية وقد أوشكت على عهد شارل الثالث ملك الفلاسفة أن تعود العربية وآدابها إلى ما كانت عليه من الحياة في إسبانيا وإن كان بعض الإسبانين إلى اليوم ينكرون على هذا الملك أفكاره على أنه كان له في إسبانيا الحديثة شأن أقل من فيليب الثاني وإن كان مثله في مكانته وسلامته فقيليب الثاني وشارل الثالث هما الملكان

الكاثوليكيان اللذان بلغا بملكمة إسبانيا أوج الفخار أما شارل كان فهو أوربي أكثر منه إسباني وإن كانت إسبانيا بلد أمه. وباتار ذيك الملكين يعثر في كل خطوة من يزور شبه جزيرة إسبانيا. فقد بلغ من جراحة شارل الثالث أن ضرب الماضي ضربة أدخلت إسبانيا في الحياة الجديدة التي أخذ شعوب الغرب يستمعون بما فأراد وهو مشغول القلب بماضي مملكته شغله بمستقبلها أن يعيد إلى إسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية وأنفق عليهم النفقات الطائلة ليعلموا الإسبانيين لغتهم الأصلية الثانية. وكان هذا العمل من الصعوبة بحيث لم يكف عصر شارل الثالث (١٧٥٩ — ١٧٨٨) لإتمامه هذا مع ما وقف في سبيله من الأوهام والعثرات حتى إذا مضى لسبيله انقطع العمل الذي قصد إليه. بيد أنه يحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر أن يبايعي بآسادة متكئين من أسرار العربية أمثال القصري وكامبومان والأب بلانكري وكوندو وفري باتريسيو دولانور وغيرهم.

جرّت حروب نابوليون الولايات والاضطرابات على شبه جزيرة الأندلس وانقطع على عهد فرديناند السابع كل عمل يراد به إحياء العلم على نحو ما بدأ به شارل الثالث. ولما تولت الملك إيزابيلا الثانية قويت النهضة وخلصت النيات للتجديد ودخل الإصلاح إلى تلك الكليات القديمة التي كانت تسكع في ديجور الباطل والعاطل إلا أن مسألة تعلم اللغة العربية كانت في الدرجة الثانية بالنسبة لما شرع فيه من إصلاح التعليم سنة ١٨٤٥ على يد المسير جيل دي زارات وبفضل هذا عادت العربية تدرس في الكليات رسمياً.

ولما استلمت الحكومة الإسبانية سنة ١٨٥٧ زمام إصلاح التعليم من دون رجال الدين أو الملك أو الأشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود إليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة الأندلس منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر ثم إن فقد

إسبانيا لمستعمراتها في أميركا وآسيا ضاعف حركتها العلمية وطمحت بها آمالها السياسية نحو استعمار أفريقية أي مراکش.

فأخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية من تلقاء نفسها تدخل في قائمة دروس التعليم العالي وأصبحت المجموعة النفيسة من المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الأسكوريال ومكتبة الأمة ومكتبة الجمع العلمي التاريخي ميداناً للمستعربين من الإسبانين يبحثون فيه ما شاؤوا ويضاف إلى تلك الأسفار الثمينة المجموعة النادرة جداً من المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية التي احتفظت بها رهينة الكنيسة الكاثدرائية في طليطلة. دع عنك تلك النفائس التي اقتنتها بعد مكتبة العالم كايانكوس وما اقتناه الأستاذ كودرا في رحلاته إلى مراکش وتونس.

وعندنا أن للمستشرق كايانكوس الفضل في أنه خط للمشغلين بالعربية في إسبانيا طريقاً مهيعاً فقام على أثره زمرة من العلماء وفي مقدمتهم المحترم الدكتور فرنسيكو كودرا الذي احتفل بيويله احتفالاً دل على عواطف أهل العلم الأوربي. وقد أصبحت ميتين من مدن إسبانيا كهف اللغة العربية ونعني بهما مجريط (مدريد) وغرناطة فنبغ في مجريط الدكتور كودرا أستاذ الكلية الوسطى والدكتور فرناند إيكونزالز والأب لازكانو الذي أخذ يبحث في اللهجة السورية في دير الأسكوريال وهو العمل الذي بدأ به في بيروت. وغير هؤلاء العلماء بالمشريات وقد انضم إلى هاته الزمرة الغيرة أناس من الفتيان أخذوا على أنفسهم الجري على آثارهم لإتمام العمل الذي بدأوا به وتقوية روابطه مثل الكاهن المسو ميكل أسين أستاذ اللغة العربية في الكلية الوسطى والأستاذ ريبيرا أستاذ كلية سرقسطة الذي يدرس في مجريط حضارة المغاربة والعبرانيين والمسو آلماني مدرس اليونانية والعالم المشهور بالعربية والمسو فيف عضو الجمع العلمي التاريخي والمؤرخ الأثري المحقق والمسو كونزالفو خازن كتب

السجلات الوطنية والمسور فيلالتا الذي قضى شطراً مهماً من حياته في مرغان والدار البيضاء وطنجة.

وقد كانت غرناطة فيما مضى مثل مجريط اليوم عاصمة الأندلس فحق لها أن تكون مركز الدروس العربية وكان الدكتور فرنيسكو جافيه سيمونه هو الذي رفع مقام هذه اللغة وعد تحصيلها فرضاً رسمياً على الطلاب في غرناطة. مات مؤخراً وهو مشهور بأبحاثه العديدة في الجغرافيا والتاريخ وأصول اللغة والآداب الإسبانية الإسلامية وأخصى في حل الخطوط العربية ومثله الدكتور ليوبولد أكويلاز والدكتور ماريانو كاسبار ريمير وامتازت إنشيلية بأبحاثها الكتابية المتعلقة بغرناطة وهو الفرع الذي برز فيه الأستاذ الماكرو كاردناس ولكل من مديني برشلونة وسالامنكة صفان لتدريس العربية العامة وتجد مثل هذين الصنفين في مالقة وقادش وبالمادي ولورقة وتيريف في قناريا.

ولا يسعنا أن ننسى ما أصدره كل من الدكتور كودرا والدكتور ريرا تاراغو من الأثر النفيس باسم المكتبة العربية الإسبانية فإنهما لم يشرا منذ سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٩٢ أقل من عشرة مجلدات في أصول اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب والنقود العربية في إسبانيا. ومما لا يصح السكوت عليه ما نشر باسم مجموعة الدروس العربية بمساعي الدكتور ماريانو دي بانو والدكتور دودرا وقد بلغ ما نشرود حتى الآن سبعة مجلدات. وإنك لتجد في إسبانيا ميدانا عجيباً للدرس وذلك لأن المخطوطات والكتابات كثيرة فيها على الرغم مما أصابها من التلف منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر كما تقرأ ذكرى الحكومة العربية في كل حجر يقع نظرك عليه بل في كل وجه يصنع طرفك بمرآة وتجد العاملين المدربين على العمل كثاراً فلا يعوزك إلا أن تدعوهم فيخرجون معك الدفائن والكنوز. ولولا الصفات الشخصية التي فطر عليها

المشغلون بالعربية من الإسبانين بالنظر لانفرادهم وقلة معونة الحكومة لهم وجهل الأمة قيمة ما يشغلون به لما كان للعربية في إسبانيا ذاك المقام المحمود فقد رأينا الحكومة تشدد في توصيد تدريس العربية في الكليات إذا خلت من مدرسيها فتقتصد بذلك رواتب المدرسين أو تعهد بالتدريس إلى أناس غير متمكنين منها حتى يتمكن كما فعلت في سالامنكة وبرشلونة ووسدت التعليم فيهما إلى مدرس اللغة العبرية. والمعلوم أن العلم كلما ارتقى احتاج إلى أناس متحجرين وأخصائيين. والأخصاء في فن يفتح لصاحبه السبيل فيذل جهده في نقطة واحدة وبذلك يبرز.

حالة المسلمين الاجتماعية

أيها السادة

إن من يلقي نظرة التاريخ الإسلامي ويرى ما كان عليه المسلمون في القرون الأولى من عزة الجانب وقوة السلطان وحرية الأفكار واتحاد الكلمة وما هم عليه اليوم من وهن العقيدة وضعف العزيمة وانحلال الرابطة قد نالت منهم الأهواء وفك فيهم داء الشقاء تذوب نفسه حسرة وأسى ويتشوق إلى الوقوف على ما أصاب المسلمين فبدل من حالهم ونزل بهم م مستوى العظمة إلى حضيض الضعة والمهانة وهم اليوم أعز من سلفهم نقرأ وأكثر مالا وأرقى عيشاً وهذا كتاب الله وسنة رسوله وهما الأساس المتين الذي قامت عليه قوة الإسلام ومنهما قد انبثق نوره وأضاءت محجته يتليان بين ظهرانيهم بكرة وعشياً. وهند معادهم العلمية تخرج في كل عام من رجال الدين وحلة الشريعة وأرباب الأقلام ما يربو عدده أضعافاً مضاعفة على ما تخرجه قرون كثيرة في أول الإسلام.

ليت شعري كيف لا يذهل قارئ التاريخ مما وصلت إليه حالة المسلمين وهو يرى أن الإسلام قد ظهر بتعاليمه السامية ومبادئه العالية فأشرق نورها على أفئدة قوم لم يسبق

لهم عهد بالمدينة ولم يعرفوا بين الأمم إلا بجفاء التربية وعبادة الأوثان وشن الغارات
وشطف العيش وخشونة الطباغ اللهم إلا بعض أخلاق كريمة كالكرم والوفاء ونحوهما
مما لا يعد ركناً وكيئاً تستند عليه الأمم في فحشها فيما لبث أن حرر الأفكار من عقلاها
وبعث الهنم من مراقدها وأنشأ منهم نشأً جديداً فلم تكن عشية أو ضحاها حتى
تجلت عروس تلك المدينة العربية في ثوبها القشيب جامعة بين قوة السلطان وصوله
العلم بين التسامح والشدّة فعمروا الأرض وأحيوا فيها موات الفضيلة وبلغوا شأواً
عظيماً من رقة الشعور وصفاء العقل فكسبهم ذلك من التلطف بالأمم حتى وقفوا على
خفيات أخلاقها وعاداتها وكشفوا ما كان مستوراً عهداً واستخرجوا من كنوز
معارفها ودقائق حكمتها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية.
نعم لم ينض جبل حتى أخذت دولة العلم تعانق دولة الإسلام في جزيرة العرب وما
فتح المسلمون من الأمصار فنبغ فيهم الحكيم والطبيب والفيلسوف والمهندس
والمخترع والفقير واخذت والسياسي الخنك والأصولي البارخ والإمام العادل فأخذ
هؤلاء يجوبون الآفاق يقودون طلائع نيك الدولتين أينما حلوا حل معهم ما استفادوا
من صنائع الفرس والآريين وعلوم المصريين والرومانيين بعد أن هذبوا وغسلوا عنه ما
تراكم عليه من الأوضار بأيدي الرؤساء في الأمم حتى غدا بفضلهم أبلغ ناصعاً مختال
في حلة عربية تدهش الناظرين وتزري بكل شيء في العالمين.

وان دينا هذا شأنه في ترقية الشعوب وتهديب النفوس لجدير بأن لا يقف بأمله تيار
الرقى والنيكلما توالى الأيام وحرصوا على التمسك بعبادته ونهجوا منهجه القويم.
فما هو هذا الداء العضال الذي مني به المسلمون فتقاعسوا عن اللحاق بأسلافهم
وتقطعت بهم السبل وبرح بهم داء الفشل.

ارجع البصر معي أيها السامع الكريم وانظر إلى ما وصلت إليه حال المسلمين. إنك لا تجد إقليمين متجاورين أو ناحيتين في إقليم أو قريتين في ناحية أو بيتين في قرية وأهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين ألا وتجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحوية والعمومية وأقل من نظرائهم في كل فن وصناعة وأعظم إهمالاً وأكثر همولاً وأكبر شقاقاً وأحقر نفوساً وأتعس حالاً حتى ترهم كثير من حكماء الأمم الحية لينصفوا التاريخ أن الإسلام والنظام ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يأتلفان.

أيها السادة

إن علينا واجباً كبيراً وفرضاً محتملاً أمام الله ورسوله والناس أمام الشرف والتاريخ لا نخرج من عهدته ولا نبرأ من تبعته إلا إذا وجهنا جل عنايتنا وصرفنا أوقاتنا وقللنا شبة يراعنا بحثاً وتنقياً حتى نصل إلى تشخيص هذا الدواء ومعرفة جراثيمه وأعراضه وما يستأصلها من الدواء الناجع وهذا أفضل جهاد تثاب عليه من الله والتاريخ ولنعم الجهاد هذا الجهاد لذلك رغبت في أن يكون هذا البحث الجليل موضوع محاضرتي اليوم طرقة مستعيناً بالله وربنا أوتيته من العلم فأقول:

اختلف الباحثون من العلماء في منشا هذا الفتر فذكروا أسباباً كثيرة كلها فروع ترجع إلى أصل واحد ألا وهو الانحراف عن جادة الكتاب والسنة وتلمس الهدى من غيرهما فحققت علينا كلمة القرآن إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ومن اعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وقد ذكرنا في المقدمة ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الأعراث في البداوة لم يتبلغوا بشيء من التحليم والتعرف

ولم يشموا رائحة العلم والصناعة فما كادوا ينفضون عنهم غبار الوثنية حتى ظهر من أمرهم ما قصصناه عليك. وذلك أن الدين الإسلامي كما أنه يدعو الناس إلى توحيد الله والإيمان بما بعد الموت من عالم الغيب يدعوهم أيضاً إلى الإيمان بعالم الشهادة والسير على سنن الكون قد أطلق لهم عنان الحرية وطالبهم بالتفكير فيما خلق الله من عالم السماوات والأرض قد وضع لهم قانوناً جامعاً لضروب الهداية متكفلاً لهم أن هم اتعود ونصروا بإصلاح شؤونهم في هذه الحياة الدنيا قد أحكت أصوله على قاعدة جلب اندفاع ودرء المفاسد والإرشاد إلى أنه الدين القيم الفطري الملائم لإصلاح النفوس بالأخلاق الفاضلة وإصلاح شؤون البشر الاجتماعية بإقامة العدل واتباع الطريقة المثلى في كل شيء. سة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله.

فهم السلف الصالح هذا الأصل من القرآن فامتدوا بمديه ولم يحيدوا عنه قيد شبر عالين (إن من أقام هذه الأركان كلها كان هو المسلم الكامل ومن هدمها كلها كان ملحداً في دينه ومن كان أقرب إليها كان حظّه من السعادة بمقدار سهمه منها) وأن ليس بعد القرآن والسنة إلا الضلال والعصى كما قال تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.

تفرع أيها السادة عن هذا الأصل الويل أمراض هشمت من عظمة الإسلام وشوهت من محاسنه فأول جرثومة سرت منه إلى المسلمين رجحان كفة السياسة الكاذبة على كفة الدين الصحيح لحاجة في نفس بعض الأمراء المستبدّين كانت الحكومة الإسلامية في أحكامها نياية اشتراكية (ديموقراطية) كما نطق بذلك القرآن الكريم وأرشدت إليه السنة وظلت كذلك زمن الخلفاء الراشدين إلى أن وقع النزاع بين علي ومعاوية فاتخذ بنو أمية ذلك ذريعة لتول مجراها وقيد معالها وجعلها ملكاً عضوضاً يملكه فرد يستبد به كيف شاء فبدأ يتطرق إلى الأمة داء الذل ووجد الضعف منفذاً إلى قلوبهم ووجد

الأبرياء من بعدهم مع توالي الأيام مجالاً فسيحاً من صدور أولئك الذين نصبوا أنفسهم قادة للدين وسموا أنفسهم حماة الشريعة فوضعوا لذلك أصولهم في التشيع والاختلافات في أصول الدين وفروعه فانشغل بها الناس وصدقوا عن الكتاب والسنة وولوا وجوههم شطر البدعة وذهبوا شيعاً متباينة مذهباً متباعدة سياسة ومشرباً كل طائفة تجادل عن نفسها وتدعو إلى كتابها ولو أدى ذلك إلى تكفير الأخرى فخرج الدين عن حضارة أهله وتحول عن بساطته واتسع الخرق وانحلت الرابطة الإسلامية بل والقومية وفشت المنكرات وانطمست معالم السنن وتحكم التقليد لأنه أثر من آثار التشيع بل ركن من أركانه.

التقليد

التقليد وما أدراك ما التقليد التقليد هو قيد الأحرار وسجن العقول وهادم الأفكار وعدو الشرائع ومبيد الأمم وجيش الاستعباد.

كان الإسلام ملة سمحاء ليلها كنهارها واضحة المسالك معروفة الواجبات سهلة المأخذ بلفظها الأعرابي الجافي من فم الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يرح من مجلسه إلا وقد خالطته بشاشة الإسلام وأشرب في قلبه التوحيد كما قال تعالى: ما جعل عليكم في الدين من حرج شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه.

عجباً كيف يرضى المسلم العاقل أن يغفل عن شيءٍ وبه الله وهو العقل يغفل التقليد والاستسلام ويلقي بنفسه في برائن الجحود والله قد أمره بأن يكون على بصيرة في دينه فقال تعالى: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني إنما ضل من الخلد إلى التقليد بعد أن تبين له الحق كمثل رجل أراد أن يسلك طريقاً مستقيماً واضح

المسالك لا عوج فيه فوسوس إليه الشيطان قال: هل أدلك على طريق آخر هو أقرب إلى غايتك فانصاع له فأخذ يقوده كالأعمى في طريق مظلم كله تعاريج وعقبات فلما أن توسطاه قال إني بريء منك وتركه يتخبط في ديجور حالك لا يدري أين يهذل كلما أخرج يده بم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أنهى الله باللائمة والتقريع على أهل الجهود من المقلدين في كثير من آي القرآن قال تعالى بعد أن احتج على المشركين وبين أن لا حجة لديهم في عبادة الأوثان (يا قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون. وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) فقد احتج على المقلدين بأنه يجب عليهم اتباع النظر وما هو أهدي ولم يعذرهم بالتقليد فدل على أن عذر غير مقبول عنده ولو كان التقليد عذراً لأحد لكان جميع المشركين معذورين عنده.

كان الصحابة والتابعون يأخذون أصول الدين وفروعه من القرآن وما ثبت من السنة يحكمون العقل واللغة في تفهيمها واستباط ما لا يجدون فيه نصاً صريحاً وإن اختلفوا في شيء رجعوا فيه إلى دينك الأصلي كما قال تعالى (فإن تنازعتم في شيء الآية) فهناك يرتفع الخلاف ويرجع المخطيء عن خطئه ويظهر الحق كما وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع أبي بكر رضي الله عنه في قتال أهل الردة وهذا هو الاجتهاد الذي كان سائغاً في السلف الصالح من الأئمة وكان هؤلاء نظروا إلى المستقبل من طرف خفي فأنكروا أشد الإنكار على من يأخذ بآرائكم في الدين قبل أن يعرف مصدرها من الكتاب والسنة فقد روي عن أبي حنيفة أنه قال لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا وقال الشافعي إذا صح الحديث فهو مذهبي ولكن خلف من بعدهم خلف وقف بهم جمود الفطنة وقصور الصمم عن اتباعهم وتقليدهم تقليداً أعمى فجعلوا

مذاهبهم أصولاً يرجع إليها وأخذوا يتفتنون في فرض المسائل واستنباط الأحكام من تلك الأصول فتشعبت الآراء وكثرت الاختلافات واتسعت التآليف في الفقه وأصول الدين على غير أسلوب فصيح من اللغة العربية لا يخالها القاريء إلا رموزاً أو أحاجي يتعاصى فهمها على العربي الصميم. يخضي الطالب وأسفاد زهرة العمر في تحصيلها فلا يخرج من تلك المضائق إلا وقد حشر في مخيلته ضروباً من الاصطلاحات والمسائل متشاكسة متنافرة لا تروي من ظمأ ولا تشفي من علة وإن فهم القرآن والسنة لأسهل بكثير من هذه الشروح والخواشي لأن كلامهما عربي مبين لم يتلوث بالعجمة ولم يتدنس بسقم التركيب والآراء فمن تعلم العربية تعليماً صحيحاً تيسر له الفهم منهما فلا يعاني عشر معشار ما يعانيه في تلك المعجمات (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر).

ثم لم يكفهم ذلك حتى حجروا على الله واسعاً فأرصدوا باب الاجتهاد وأسدلوا بين الأمة وبين كتابها ستراً من الأوهام وحرموها لذة النظر والتدبر في معجزاته فأصبح لا يتلى إلا في المآتم وعلى المقابر (تبركاً) يتأكل به أناس من الكسالى يغنون به على قارعات الطرق وأبواب المساجد يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثناً قليلاً فبئس ما يشترون من هنا أيها السادة اقتسم هذا الدين فريقان فريق اطمأنت نفسه إلى القديم فهو يريد أن يرجع بالناس القهقري بحمل أهل القرن الرابع عشر على أن يتخلقوا بأخلاق أهل القرون الوسطى ويجذوا حذوهم في أحكامهم وآرائهم ومدنيتهم فلا يخطئوها قيد شبر يكابرك فيا محسوسات ويجادلنك في الحق وينكر سنة الله في خلقه من أن لكل عصر طوراً من أطوار الحياة يأخذ قسطه من النمو والارتقاء بحسب استعداد أهله ذلك العصر ولذلك كانت نصوص القرآن خصوصاً ما يتعلق منها

بالآلاء والأخلاق التي هي أكبر معجزاته مجملة يتناولها أهل كل زمان بقدر ما وصلوا إليه من الرقي.

وفريق رأى من وعورة الملك وصعوبة الفهم في كتب القوم ما يقطع نياط القلب دون الوصول إلى الغاية وإن كثيراً منها على تشبثه وتشويشه لا ينطبق على مقتضيات العصر الحاضر ولا يتلف مع مدنيته ففرطوا في أمر الدين وأهملوا مجد آباءهم وذهبوا يتلمسون الإصلاح من غيرهما فعدوا بهرج المدنية الأوروبية وصبت إليها نفوسهم حتى أصبح التدين ضرباً من التهوس وسمة من سمات التأخر وساعدهم على ذلك ما رأوا من نظام الغربيين طرفة منهم قد خرجوا من ورطة التقليد الأولى ووقعوا في شر منها فلم يكن من جراء ذلك إلا أنهم قبلوا أوضاع مبانيهم وغيروا من أزيائهم وبدلوا من هياكل ماكلهم وملابسهم وآبئهم وتنافسوا في أيهم يسبق الآخر في إحكام نظامه إلى أجود ما يكون في البلاد الأوروبية وتوغلوا في الإسراف والبذخ وانسابت ميازيب الثروة من أيدي الشرقيين إلى جنوب الغربيين جلب ما تستدعيه تلك المدينة من الضروريات والزخارف فكسدت بذلك أسواق الصناعات الوطنية ومات أربابها لأنها أصبحت رثة بالية لا تروق في أذواقهم لم تجد معضداً من موسريهم وسراقهم لتنهض من خمولها وتضارع أختها في الغرب كما فعل أهلها إبان رقيهم فنخلص من شر ما يضمره لنا المستقبل من الفقر المدقع إن دام هذا السبات لأن ما قريناد من المدينة الكاذبة لم يقيم على أساس متين. نعم أنا لا أنكر أن في الأمة الإسلامية كثيراً ممن تعلموا في أوربا فوقفوا على أسباب حياتها وحملوا إلينا شيئاً مما تعلموه ولكن قل أن ترين من هؤلاء مهندساً مخترعاً أو طبيباً مكتشفاً أو عالماً أخلاقياً أو أصولياً مشرعاً وهناك أناس لا يسعون وراء الثروة ويتكلمون على الوظائف ومن كان هذا شأنه فمحال أن يعمل لخير بلاده.

قرر علماء الأخلاق والباحثين في أطوار الأمم أن المقلدين في كل أمة المتحلين أطوار غيرها يكونون سلماً تتطرق الأعداء إليه ويكونون بما وقر في قلوبهم من تمجيد الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مبادتهم ولو كانوا من أبناء جلدتهم أو إخوانهم أو عشيرتهم فيستهينون بجميع أعمالهم ويحتقرون أمرهم ويسخرون منهم وبهذا وأمثاله وهنت الرابطة القومية وانحلت عقدتها وفقد التضامن الذي عبر عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً مثل المؤمنين في تعاندهم وتآزرهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وكفى بذلك مدعاة للتقهقر والانحطاط ولكن يلوح من بين هذه النابتة الذين قذبوا بنور العلم وعركتهم يد الحوادث بصيص من الأمل يجعل الأمة تتطلع إلى مستقبل باهر كما قال فيهم بعض الفضلاء: أرى في شجرة الإسلام التي جفت أوراقاً خضراء فلا أدري أهى بقية مما مضى أو باكورة للمستقبل.

البدعة في الدين

أيها السادة

أرأيتم لو أن طبيباً وصف لأحد المرضى علاجاً رأى فيه شفاء فحدد للصيدي ما يحتاجه ذلك الدواء من العقاقير وبالتالي مقاديرها وكيفية تركيبها فخالف الصيدلي أمر الطبيب وأخذ يزيد وينقص في المقادير كيف شاء حتى جعلها سماً زعاقاً لا دواء نافعاً إنكم ولا شك تحكمون على هذا الكيماوي إما بالجهل في صناعته وإما بالغش والخيانة وإنه من أكبر العاملين على تفشي الأمراض وإزهاق الأرواح بسبب ما يرتكبه من الخطل في تلك المهنة الشريفة.

ولكم مثل الذي يتدع في الدين ويفتري على الله الكذب لأن القرآن والسنة والله هما شفاء لما في الصدور قال الله تعالى: ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة. ونزلنا الكتاب تبياناً لكل شيء فالذي يتدع في الدين إنما يحارب الله ورسوله ويصيب كبد الإسلام بسهم مسوم.

يا حسرة على الإسلام وظهرت بوادر هذه البدع في إبان الإسلام فكان قادة الإسلام يحاربونها بسلاح القرآن يدحضون الحجة بالحجة ويقرعون البدعة بالسنة إلى أن تمكن حب التقليد من النفوس وقل الاشتغال بالتفسير والحديث وأهمل التاريخ فاختلط الحابل بالنابل وراجت سوق الأحاديث الموضوعة وانصغت بها بطون التأليف لا سيما ما يتعلق منها بالزهد والرغائب والحث على القناعة باليسير والكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفيسة كحب الخلد والرئاسة والإقدام على عظام الأمور ودب إلى الأمة داء التواكل واسترسلت وراء الأوهام وعلق بالقلوب كثير من أدران الشرك وظهرت المعجزة في حديث سبعين سنن من قلبكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم أليس ما نراه اليوم من تعليق الآمال بقبور الصالحين وتشديد الأضرحة وبناء القباب والمساجد عليها والتغالي في زخرفتها ونذر الندور لها وشد الرجال لزيارتها مما يعتقد كثير من الناس أنه من أعظم القربات كان في صدر الإسلام ضرباً من الشرك بل هو الشرك الذي جاء الدين بمحوه.

إن القرآن والسنة لم يتركا باباً من أبواب الشرك إلا وأوصداه بألف حجة وبرهان وخليا بين العبد وربّه يناجيه ويرفع إليه حوائجه كيف شاء ومتى شاء لا يحتاج في ذلك إلى وسيط أو وسيلة اللهم إلا ما شرع لنا من وسائل الأعمال الصالحة كما فسر الرسول بذلك الوسيلة في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة.

نرى كثيراً من يهتدي بهم يتهافون على هذه المهلكات قماقت الذباب على الطعام ويقتسمون ما يلقي في الأضرحة من النذور كأنه ميراث ورثوه عن الأجداد والآباء ويؤولون ما ورد في ذلك من النصوص القطيعة محدث: لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها السرج. لا تتخذوا قبري من بعدي وثقاً يعبد. لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى.

أيها السادة هذه هي أمهات البدع التي ألصقت بالإسلام ولولا أنه دين قويم قام على أساس متين لانتحى أثره من الوجود لكثرة ما رزىء به من أمثال هذه الأمراض القتالة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لم أر ديناً كدين الإسلام حول لكل فرد من أفراد الأمة الإشراف على الشؤون العامة والقيام بأمر الإرشاد والنصيحة وأطلق لهم عنان الحرية في مباشرة هذين الأصلين بحسب ما تستدعيه حالة الأمة. قال الله تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذي لم يقم بهما لا شك أنه خارج من هيئة المؤمنين.

كان خطباء المساجد هم من القاضين بهذه الوظيفة يترجون مصالح الأمة بالمواظظ والإرشادات فكانت خطبهم تفعل بالنفوس ما لا تفعله السيوف. هذه كتب الأدب فطالعتها إن شئت تجدها مشحونة بخطب السلف من الأمراء وغيرهم على نحو ما تسمعه اليوم عن الغربيين في دور نوابهم ومجالس أعيانهم كم نهت شعوراً وأحييت أمماً وأماتت جناً وأصلحت معوجاً وهذبت نفوساً وسنت نظاماً انعكست القضية فأصبح خطباء المساجد إلا قليلاً من أجهل الناس يقولون ما لا يفعلون ويتكلمون بما لا

يفهمون من سقط القول فلا تسمع إلا سجعا كسجع الكهان واني يؤثر الوعظ إذا كان لا يتجاوز اللسان.

احتياجنا إلى العلم

أيها السادة ما أشبهنا في حياتنا الاجتماعية بالحيوانات الأليفة أو الطيور الداجنة التي يحبسها ربما في الأقفاص تنتظر منه فضالة من طعام أو رشفة من ماء فإن هو منعها ذلك هلكت جوعاً وظمأً إذ ليس لها من الحول والقوة ما تفك به قيود الأسر فتخرج إلى الفضاء آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان.

وأسفاد. سبقتنا الأمم شوطاً بعيداً فأصبحنا في مؤخر الرحل كقدح الراكب عالة عليها في كل حاجتنا الأدبية والمادية حتى فيما يتوقف عليه فهم كتابنا الكريم من الحكمة العرفية والعلوم الكونية. بربك هل تجد فيما يدرأ عنك طواريء العاديات وتدفع به غوائل الحر والبرد مما تذود به من سلاح ولباس وما تسكنه من قصور شاهقة ومبان شاهقة وأكواخ حقيرة وما تحتاجه من آنية طعام وشراب وموائد وأخشاء وحرائر وأطالس وفرش ومقاعد ومصايح ومطابخ وحلي وجواهر ونقود ومعادن وما يحتاجه الزارع في زراعته والكاتب في كتابته والكيماوي في حانوته. هل تجد في كل ذلك أبداً لصانع شرقي اللهم إلا إذا كان مكارياً أو سمساراً أو عاملاً بسيطاً أو تاجراً لا يربح من تجارته إلا اليسير لا يدري أين صنعت ولا كيف صنعت.

جهلنا حقائق الأشياء فلا نعلمها إلا أمانى وانتصرنا على ما يعلق بعلاقة الإنسان مع ربه وحكمنا على ما عدا ذلك بالإعدام وحاربنا أهله وأزهدنا روح التقدم وأطفأنا مصايح العرفان في الأذهان.

أين منا المؤرخ والنباتي؟ أين منا الطبيب والكيميائي أين منا المهندس والطبيعي واللغوي والأديب والمنطقي أين منا عالم الأخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة نعم إن لدينا منكم نفراً ولكن هم دون الحاجة وقليل منهم العاملون.

دعانا داعي الإصلاح فأرشدنا إلى مواقع الضعف منا وإن لا نجاة إلا بمجاراة الأمم الغربية وإن تطلع جذور هذه التربية العقيمة علنا نعمل فلنرجع مجد آبائنا الأولين أساتذة الغرب فنحن به دعاة السوء من كل جانب إن قد خالفت الدين افتراء منهم على الله وما كانوا مهتدين.

يا قومنا هذا القرآن حجة على الشعوب الإسلامية بما فرطوا من أمر الدين والدنيا تتلى عليكم وفيها من أسرار الكون وعجائب المخلوقات ما لا سبيل لنا إلى فهمه إلا إذا أخذنا نصيباً من هذه العلوم.

قال الله تعالى إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء آيات لقوم يعقلون وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون. هذه الآيات وأمثالها تمجّل علينا العار وإننا لسنا من العقلاء في شيء إذ العقلاء هم الذين تغذى أرواحهم بتعرفة ما أبدع الله في الكائنات وما ذراً في الذرات من مباحج الآلاء والحكمة. العاقل من تدعوه لذة النظر إلى الشوق والولوع في حوز المعارف والعلوم.

يا قومنا هذه هي أزممتنا وهذه جرائمها التي لا تزال تنخر في جسامنا وتفسد من أعضائنا وتميت من مشاعرنا فهل لنا أن نكشف الغطاء عن أبصارنا وبصائرنا فنخرج إلى عالم النور فتحيا حياة طيبة.

يا قومنا لا دواء لنا من هذه الأدواء إلا بالعلم ولا علم إلا بالتربية والتربية مفقودة عندنا نسع ضجة للعلم وجلة للمدارس ونبع فلان وأخذ فلان الشهادة فإذا سرنا في

الشوارع أو بين دور الوطنيين نرى ما تذوب له الأكباد نرى فلذاتنا أمة الغد من ذكور وإناث كقطعان الغنم يتلاكمون ويتلاطمون ويتنازرون بكلمات الفحش والفجور قد صبغهم الأوساخ وشوهت من محاسنهم الأمراض أليس هذا بدليل على أن الأمة لا تزال في أقصى درجات الانحطاط مسخا نصوص الشريعة الغراء فإذا دعانا داعي الإصلاح أن لا سبيل للترقي إلا بتعليم المرأة صوبنا إليه سهام الطعن وقتلنا كذباً وافتراء أن ذلك مخالف للدين.

أفلا تنبهنا الحوادث وتروظنا العظائم وما نحن قد شخصنا أمراضنا وعرفنا أسباب تأخرنا فلم لا نعمل على إزالة هذه الأسباب فنفيق من رقودنا ونهب من سباتنا ونخلص من هذه القيود ونسبح في فضاء الحرية نستبدل بهذا الخور عزيمة وبالدل عزاً وبالأستكانة شهامة وبالتفرق وثاماً وبالجهل علماً.

يا قومنا إن العلم كثر مفاتيحه الأخلاق وحاجتنا إلى هذا الكثر شديدة فهلما لنهذب من أخلاقنا ونمحو آثار الرذيلة من بيننا ونحافظ على عاداتنا علنا أن نفتح هذا الكثر المغلق فنكون خير أمة أخرجت للناس.

مطبوعات ومخطوطات

شرح ديوان طرفة بن العبد

للشيخ أحمد بن الأمين الشقيطي طبع بمطبعة أورنه ك في قرآن

(روسيا) سنة ١٩٠٩ (ص ٨٠)

طرفة بن العبد أحد فحول شعراء الجاهلية الأقدمين الذين يستشهد بصحة عربيتهم وديوانه هذا قليل الجرم جم النفع وهو مرتب على رواية يعقوب بن السكيت وأشار الشارح إلى ما أخذه من تعليقه بقاف بين قوسين ونبه على ما لم يروده الشنستري في شرح السنة ومن شعر طرفة:

واعلم علماً ليس بالظن أنه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل
 وإن لسان المرء ما لم تكن له ... محصاة على عورانه لدليل
 إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تقل ... وأنت عم لم تدرك كيف تقول
 وإن امرأ لم يعف يوماً فكاهة ... لمن لم يرد سوءاً بما لجهول
 تعارف أرواح الرجال إذا التقوا ... فمنهم عدو يتسقى وخليل

ومنه:

قد يبعث الأمر العظيم صغيره ... حتى تظل له الدماء تصب
 والظلم فرق بين حيي وائل ... بكر تساقبها المنايا تغلب
 قد يورد الظلم المين آجناً ... ملحاً يخالط بالذعاف ويقشب
 وقراف من لا يفتق دعارة ... يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
 والإثم داء ليس يرجى برؤ ... والبر بروء ليس في معطب
 والصدق يألفه اللب المرتجى ... والكذب يألفه الدين الأخيب
 اللع في أصول الفقه

لأبي إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦

عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني

طبع بمطبعة السعادة بمصر (ص ٩٥)

الشيرازي هو مدرس النظامية ببغداد رحل إليه الناس من الأمصار كما قال الحافظ
 السمعانيلا وكان يضرب به المثل بالفصاحة وكان عامة المدرسين بالعراق والجلال
 تلاميذه وأصحابه صنف في الأصول والفروع والخلاف والجدل وقد اشتهر كتابه هذا
 اللع في معظم البلاد حتى قال فيه الرئيس أبو الخطاب بن الجراح:
 أضحت بفضل أبي إسحق ناطقة ... صحائف شهدت بالعلم والورع

بما المعالي كسلك العقد كامنة ... واللفظ كالدر سهل جل مُتَمَنع
 رأى العلوم وكانت قبل شاردة ... فحازها الأملعي النذب في اللمع

وقد طبع الكتاب بمراجعة نسختين جيدتين منه في المكتبة الظاهرية بدمشق تاريخ
 إحداهما ٥٧٤ والأخرى فيالعام نفسه وقد علق عليه الأستاذ جمال الدين القاسمي
 تعليقات نافعة تدل على فضل اطلاع منها ما علقه في صفة المفتي والمستفتي قال: قال
 برهان الدين التقصر في علم اللغة إخلال بأول فروض الاجتهاد وقد أحسن الشيخ
 أبو المعالي فيما علق عنه من الأصول حين بين مواد مواد العلوم ومقاصدها وحقائقها
 وجعل مادة الفقه الأصول القطعية وهي الكتاب والسنة والإجماع وجعل اللغة مادة
 لهذه المادة قال لأن الشريعة عربية فلا بد من القيام بما ليفهم عن الله مراده فاللغة أصل
 الأصول ومادة المواد فكيف يكمل فقه من أخل بما.

ثلاث رسائل

الأولى المنظومة الموسومة بمواهب المشاهد في واجبات العقائد مؤلفها هبة الدين السيد
 محمد علي وهي ٣١ ص والثانية رواشح الفيوض في علم العروض للفاضل الموما إليه
 وهي قريبة المأخذ حجة الفوائد في ٤٢ ص والثالثة متن اعتقادات الأمامية لبهاء الدين
 العاملي صاحب الكشكول وهي موجزة وافية بالغرض وقد جاء فيها بشأن الخلافة
 عند الشيعة ما نصه: نعتقد أن خليفته من بعده علي أمته بالنص الجلي فيوم الغدير
 وغيرد أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب عليه السلام وبعده ولده الحسن
 ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم
 علي الرضا ثم محمد التقي ثم علي التقي ثم الحسن العكسري ثم محمد المهدي صاحب
 الزمان صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بنص كل سابق على لاحقه وأن جميع الأنبياء
 وأوصيائهم معصومون ن جميع الذنوب والسهو الونسيان وسائر النقائص وإن محمد

المهدي عليه السلام هو مستور عن الناس كخضر وإلياس إلى أن يؤذن له في الظهور
فيملاً الأرض قسطاً كما ملئت جوراً وظلماً اهـ قلنا ومن الشيعة سرت إلى السنة
عقيدت المهدي المنتظر راجع ما قاله ابن خلدون في أحاديث المهدي في المقدمة.

خلع السلطان عبد الحميد

الخليل أفندي الخوري طبع في مطبعة الإصلاح بدمشق سنة ١٩٠٩

(ص ٨٠)

ذكر كاتب هذه الرسالة السبب الذي حمل الأحرار على خلع السلطان العثماني
السابق وطرفاً من سيرته وسياسته وقد رأينا فيها بعض أمور كنا نود لو عزاها ناقلها
إلى مظانها مثل قوله (ص ١٥) إنه منذ عشرة أعوام نوت بريطانيا الجلاء عن القطر
المصري وأحضر سفيرها في الأستانة الأوراق الرسمية وعرضها على الصدر الأعظم
فأبى المخلوع كل الإباء وقام رجال الماين المنافقون مدعين أن الإنكليز يدسون
الدسائس للدولة العثمانية وأن الإنكليز إلى الآن لا يتأخرون البتة عن إخلاء مصر إذا
رضيت الدولة أن ترسل جنودها إلى هناك للاستيلاء على القطر. ولو صح مثل هذا
الخبر لكتب فيه المجلدات فضلاً عن المقالات. الكتاب شاهد بأدب كاتبه حري
بالمطالعة.

مجالات جديدة

النعمة — مجلة دينية علمية إخبارية تصدرها البطيركية الأنطاكية الأرثوذكسية في
دمشق مرتين في الشهر ومعظم القسم التاريخي والأدبي بقلم عيسى أفندي اسكندر
معلوف أحد المنشئين المشهورين. وقيمة اشتراكها في دمشق ريال ونصف وريالان في
الممالك العثمانية وخمسة عشر فرنكاً في الخارج.

الكوثر — مجلة علمية فنية سياسية لصاحبها ومحررها بشير أفندي رمضان من فضلاء الكتاب تصدر في بيروت في غرة كل شهر وفي الجزء الأول منها مقالات نافعة منها التأثير الفطري بالإنسان والاقتصاد والتراجم الكهربي واختراعه والحفريات في بابل وغير ذلك من الموضوعات الملهمة المفيدة. وقيمة اشتراكها ربالان في بيروت وربالان ونصف في سائر الولايات وخمسة عشر فرنكاً خارج البلاد العثمانية.

الحسنة — مجلة نسائية علمية أدبية تاريخية أخلاقية اجتماعية لمنشأها جرجي أفندي نقولا باز ويساعد في تحريرها نخبة من الكاتبات والكاتبين وهي تصدر مرة في الشهر وفي الجزئين اللذين طالعهما منها عدة أبحاث نسائية مفيدة منها ترجمة مدام دي ستال ومام رولان وهما العقيلتان اللتان أعدتا الأفكار للنهوض قبل الثورة الفرنسية الأولى ومقالة في المرأة والدين إلى غير ذلك من الفوائد المترتبة والبيئية وصاحب هذه المجلة معروف عند معظم قراء العربية بمقالاته ورسائله في الأخلاق والاجتماع. وقيمة الاشتراك بالحسنة عشرة فرنكات في بيروت واثنان عشر فرنكاً في الخارج.

فترجو لرصيفاتنا الجديدات نجاحاً يكثر من سواد أعوانها وأنصارها وينفع بمسطورها ومنشورها وفق أربابها إلى إنارة العقول وبث روح المدنية الصحيحة.

سير العلم والاجتماع

إلغاء الرتب

صدر أمر نظارة الداخلية العثمانية أن تكون التشريعات يوم ١٠ تموز شرقي أي يوم ذكرى مرور حول كامل على إعلان القانون الأساسي في المملكة العثمانية باللبسة السوداء على عادة الأمم الديمقراطية وقد صدعت أكثر الولايات بهذا الأمر وبذلك أقرت الدولة بأنها ألغت الرتب التي طالما كانت السبب في إفساد أخلاق الأمة أيام كانت الدولة العثمانية دولة استبدادية.

قانون المشردين

وضعت الدولة العلية نظاماً للمشردين وأخذت تطبقه في العاصمة والولايات وموجبه يضرب المضرون في المجتمع الإنساني بالعصي وذلك لأن طبيعة البلاد تقتضي الضرب الآن ولولا هذه العقوبة المخسوسة لا يؤثر القانون أثره المطلوب في بعض طبقات الناس.

شاه إيران

قويت شوكت الأحرار وظفروا بشاههم الظالم المستبد محمد علي شاه بعد أن خصوا أرض فارس بدمائهم فأنزلوه هذا الشهر عن عرش الأكاسرة وجعلوا مطانه يكره الشاه أحمد وهو في الثالثة عشرة من عمره وبخلع الشاه محمد علي قاجار والسلطان عبد الحميد العثماني منذ ثلاثة أشهر إبان الفرس والعثمانيون بأنهم أقوياء في العقل أشداء في العمل ينكرون على الظالمين فيسرهم وجهرهم وأن الأخلاق اليوم أرقى منها بالأمس إذ لا عمل بلا خلق وإعداد عامة المعدات في الوصول إليه.

استعمال السكر

ثبت أن الإكثار من السكر يزيد في القوة العضلية من ٢٦ إلى ٣٣ في المئة وقد أكد بعض أطباء الجند من الألمان أن السكر يسكن الظمأ والجوع ويؤخر التعب ويمكن استعماله للجنود السيارة ولراكي الدراجات والانتفاع به. كما أثبت بعضهم أن إعطاء خيول الحوافل والعجلات الصغيرة سكرًا يقتصد به كثير من طعامها. وهناك أناس من الباحثين في صحة البطون أثبتوا أيضاً أن ليس من خواص السكر في الأشربة والمربيات والمعجنات لذة في الطعم فقط بل هو مادة من المواد التي يحتاج إليها في التغذية. وقد قال تورثه قطعة من ضلع غنم ثنه قرشان. وكان معدل ما يتناوله الفرد في البلاد الراقية ١٣ كيلو غراماً في السنة على حين أثبت الاختبار أنه يمكن للفرد أن

يتناول في اليوم من خمسمائة غرام إلى كيلوغرام وبالجسلة فإن الإكثار من السكر أنفع في الصحة من الإقلال منه.

صحة الإنسان

أثبت الأخصائيون فيعلم الأسنان أن الانس الذين تناسب ثيابهم مع ثيابهم وأضراسهم يقل عددهم شيئاً فشيئاً حتى في الملوك أنفسهم وهم الغلاة في القيام على الصحة ومنهم ألفونس الثالث عشر ملك إسبانيا وادوارد السابع ملك إنكلترا فإن أسنانها غير متناسقة في وضعها. وهذا الاختلال في وضع الأسنان لا يغير صورة الوجه ويجعلها بشعة فقط بل يحدث ارتباكات معدية تنشأ من قلة مضغ الطعام ويجب التوقي من ذلك ولكن الوقاية لا تفيد في الأكثر إلا في زمن الصبا. وقد وضعت الفطرة الأسنان على نظام خاص لينطبق بعضها على بعض فإذا جاءت ناتئة أو متداخلة تشوهد منظر الفم وأضررت بصحة الجسد. ومن الأيوين من يتساهل في أخذ الولد إلى طبيب الأسنان فيزيد ألمه ومنهم من لا يعنون بصحة الفم فيخر السوس الأسنان ويضر بها أي ضرر وقد ارتأى الدكتور جارينه ويت من بوسطن أن من أنجح الطرق في حفظ صحة الفم أن يزور الطبيب أولاد المدرسة ليبحث عن أسنانهم وأمان في محاضرة له في هذا الباب أن الفم مستتب الجراثيم الباثولوجية وغير الباثولوجية يفعل فيه الاعتدال المناسب والرطوبة ونترات الطعام وقال أن التساهل بصحة الأسنان أدى إلى أن كان في المئة من أولاد الألمان ٨٤ إلى ٩٥ لهم أسنان عاطلة وعمت البلوى في الأسنان الرديئة في أميركا حتى لا تكاد تجد أميركياً في الستين من عمره ممعاً بأسنانه كلها أو لا يشكو منها. ومن الناس من يعمدون إلى قلع أسنانهم عند أقل عارض يعرض لها ويمسحون عنها بأسنان صناعية حتى في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من أعمارهم بحيث كان طب الأسنان صناعة رابحة في أميركا وغيرها واعتنى أربابها

فأصبح عددهم يزيد كل يوم. قال الدكتور المشار إليه وأن التساهل بالأسنان مرض أشد فتكاً من الأوبئة والأمم لا تهلك إلا من أسناها.

المطبوعات الألمانية

نشر في ألمانيا من تموز ١٩٠٧ إلى تموز ١٩٠٨ نحو ثلاثين ألف تأليف ألماني طبع القسم الأعظم منها في برلين ويليها ليسيك على أن هذه المدينة كادت تكون فيها أعظم سوق للكتب في العالم أما ادنبورغ التي كان يسميها الإنكليز مفاخرين فقد كادت تسقط من مكانتها.

تبادل الأولاد

قامت فئة منورة في بعض بلاد أوروبا تفتن في تعليم ناشتها فرأت أن من خير ما يقوي ذهن التلميذ ويزيد فياختباره وعلمه أن يرسل به إلى مملكة أخرى فالإنكليزي يبادل ابنه مع الفرنسي والفرنسوي يرسل بابنه إلى صاحبه الألماني وقد أخذ هذا المبدأ ينمو حتى بلغ عدد من أرسلتهم فرنسا من شبانها هذه السنة إلى خارج بلادها بواسطة جمعية مقايضة الأولاد الدولية ١٧٥ طالباً أرسلت ثلثهم إلى ألمانيا.

فلسفة تولستوي

كتب المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق ومحرر مجلة أوتلوك يصف فلسفة الكونت تولستوي الروسي فقال إنه رجل نابغة وقصي كبير كما تشهد به رواياته المختلفة التي أثرت تأثيراً حسناً في أهل عصره ولكنني أشك فيما إذا كان تأثيره كبيراً بين رجال العمل من الوجهة الفلسفية والأدبية. ولست أنكر أن فلسفته يؤثر بعض التأثير في الناس الذين يلزمون مخادعهم ولا يخطون دائرة مكتبتهم. وإن كانت قد أثرت شيئاً في أهل العمل فإنما كان ذلك للشر لا للخير على أنني لا أظن أن فلسفته تجد محلاً رحباً في صدور رجال العمل بل الذي أراه أنها استولت

على أذهان ضعاف العقول وصغار الأحلام. والأقوياء العقول قد يستفيدون شيئاً من تعاليم تولستوي الأدبية ولكن بشرط أن يكونوا على درجة من قوة العقل والإرادة فكثيهم من نبذ تعاليمه السخيفة أو المضادة للأدب. ثم ضرب الأمثال على خطأ فلسفة تولستوي فقال:

إن تأثير فلسفة تولستوي في الذي يندفعون معها ويسرون في تيارها من رجالنا إنما هو تأثير مضحك في الغالب فإن بعضهم كتب منذ زمن وجيز كتاباً في مسائل أميركا البلدية قال فيه أن عيوبنا الأدبية والاجتماعية ناشئة بعض الشيء عن خطيئة المذهب الحربي. ولما كتب الكاتب هذه العبارة لم يكن تحت تأثير ما يقع أمام عينيه وما يخبره بنفسه وإنما كان متأثراً بأقوال تولستوي ومذاهبه التي لا تنطبق البتة على المعيشة الأميركية فإن المذهب الحربي عامل من عوامل الخير أو الشر في معظم البلاد الأوروبية ولكنه في أميركا كمية عاطلة لا يتعدى تنظيم البوليس الوطني لتأييد الأمن والنظام. إن أكل لحم الخيل أمر يختص بالذوق فقط ولكن المشركين الأولين في شمالي أوربا رأوا أن أكله مجلبة لضرر عظيم لأن القوم كانوا يأكلونه مباحاً للوثن فحرموا أكله. والحق يقال أن عيوبنا الاجتماعية ليست أكثر علاقة بالمذهب الحربي منها بأكل لحم الخيل المذبوح للصنم!!

وكان آخر عندنا ينظم القصائد الطوال في الدفاع عن المهدوية وحيثه في ذلك الدفاع أنه احتجاج على الحرب ومبديتها طبقاً لتعاليم تولستوي. والمهدوية كما تعلم شر ما رأى الناس من أسباب إراقة الدماء والظلم والفساد والتعصب وكانت عاقبتها المباشرة بقتل نصف السكان في البلاد التي نكبت بها وترك النصف الآخر في حضيض البؤس والمهانة. فدفاع تولستوي وتلاميذه عنها أعظم دليل على سوء مذهبه الأدبي

وما في حسابه مرشداً أديباً من الخطر على العقول والآداب انتهى ملخصاً عن
الجريدة.

الساعات في إيطاليا

بلغ عدد الساعات التي دخلت إيطاليا ثمانية ملايين ونصف مليون ساعة أتى معظمها
من سويسرا. فاستجلبت إيطاليا سنة ١٩٠٧ ٢١٥٩٧ ساعة ذهب منها ٣٠٣٠٠
من سويسرا وبلغ الوارد إليها في السنة الماضية ٥٩٥٦٩٢ منها ٥٦٦٩٩٢ من
سويسرا.

تجارة البيض

يبلغ ما تخرجه الولايات المتحدة كل سنة من البيض ٨٦٢.٥٤٦ طناً تخرجها من
٢٣٣ مليون دجاجة وما تخرجه ألمانيا ٢٧٠ ألف طن تخرجه من ٥٥ مليون
دجاجة وما تخرجه فرنسا ٣٠.٠٠٠ طن تخرجه من ٥٠ ألف دجاجة وما تخرجه
إنكلترا ١٢٥٠٠٠ طن تخرجه من ٢٥ مليون دجاجة ويتجمع الكيلو من البيض
من عشرين بيضة على أن إيراد الدجاجة الواحدة يختلف حسب الأقاليم.
وثبت في الإحصاء أن البلاد العثمانية تبعث إلى الغرب كثيراً بأح البيض ومعه حتى أن
ما تستورده فرنسا وحدها من بلادنا يبلغ مساهمة أربعة آلاف طن.

حكم صغيرة

يقول أوجين ماريو: الحرية احترام حقوق كل فرد والنظام احترام حقوق المجتمع
المجموع.

قالت العقيلة رولاند: من يعمل ولا يرجع إلى مبدأ كمن ينظر إلى ساعته وقد وضع
إبريقاً كيفما اتفق. وقال لا برويير: من الحقائق ما يكتب له الظفر وتكتب له المبالغة
أيضاً حتى تصبح كاذبة. وقال: من الأمور ما لا يطاق فيه الاعتدال الشعر والموسيقى

والخطاب العام. وقال مونتكيو: من يتكلم بدون تفكير أشبه بصياد يصيد بدون أن يتوجه جيداً للغرض. وقال بلين: العفو جزء من أجزاء العدل.

أصل الفواكه

يعرف كل نبات في بلد بأنه أصل فيها لا دخيل عليها إذا رأيت منه أصنافاً برية نبت من تلقاء نفسها ولم تنقلها يد بشرية. فالتوت الإفريقي (الفريز) دخيل على جميع البلاد التي نبت فيها الآن والجيد منه في إنكلترا أتى به من فرجيا سنة ٦٣٩ والتوت الشوكي (فرامبواز) هو من ثمار البلاد المعتدلة في أوروبا ودخيل على قارة آسيا والمشمش لم يأت من أرمينية كما توهم بعض علماء النبات بل جاء من الصين ولكنه كان برياً حامضاً وقد عرف من تاريخ المشمش أنه كان معروفاً لليونان والرومان منذ ألفي سنة. والخوخ عرفه الرومان واليونان أيضاً ولكن توهم بعضهم بأن أصله فارسي والحقيقة أنه صيني ولأهل الصين فيه أساطير. والكرز هو من فصيلة الكرز العام (كريوتيه) نبت على ضفاف بحر الخزر. والدراق وتبلغ أجناسه ثلاثمائة جنس والجنس الأول منه خاص بأرض الأناضول والقافقاس والروم إيلي. والأجاص وأجناسه كثيرة أيضاً رؤي منه صنف بري في الأقاليم المعتدلة من أوروبا وفي آسيا الغربية. والسفرجل منشأه في جنوبي شرقي أوروبا وبلاد القافقاس وإقليم بحر الخزر. والتفاح على أنواعه ينبت في أوروبا والقافقاس وما وراء النهر وفارس والتفاح هو أحد الفواكه القديمة المعروفة إذ كانت الشعوب قبل التاريخ تستعمله بكميات وافرة. واللوز انتقل إلى أوروبا من سلاسل جبال لبنان (جبل الشيخ وجبل قلمون وجبال اللكام) وما وراء بلاد القافقاس وبين النهرين وفارس وتركستان. والتين لم يهتد علماء النبات إلى معرفة بلادها الأصلية والغالب أنه من أقاليم البحر المتوسط ولا سيما سورية وكذلك العنب لا يعرف منشأه لأنه ثبت أنه قديم الاستعمال جداً بين البشر وهو حديث العهد في

جنوبي أوربا وشمالي إفريقية وغربي آسيا وأصل الجوز من أقاليم القافقاس والعجم وشمالي الهند. والبرتقال أتى على غالب الظن من جنوبي الصين وكوشنشين وانتقل إلى أوربا في القرن السادس عشر والليمون جاء من الهند ودخل إلى إيطاليا حوالي القرن الثالث أو الرابع للمسيح.

تموز الحرية

إذا انقضى مارت فاكسر الكوزا ... واحفل بتموز إن أدركت تموزا
أكرم بتموز شهراً إن عاشره ... فقد كان للشرق تكريماً وتعزيراً
شهر به الناس قد أضحت محررة ... من رق من كان يقفو إثر جنكيزا
سل أهل باريز عن تموز تلقى لهم ... يوماً به كان مشهوداً لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم ... بسالة مدت البستيل مبروزا
وإن تموز شهر قام فيه لنا ... على البقاع لواء العز مركوزا
في شهر تموز صافنا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تعجزا
هي المساواة عمتا فما تركت ... فضلاً لبعض على بعض وتجزا
أمست لنا قسمة بالملك عادلة ... حكماً وكانت على علاقتها ضيزى
كنا من الجور عياناً وليس لنا ... متق قاذئين ولم نملك عكاكيزا
حتى فحضا إلى العليا تقدمنا ... عصابة برزت في انجد تبريزا
إن تلقهم تبقى منهم في الوغى جبلاً ... ومجتهم للمنايا هجت راموزا
قوم إذا طمعوا في حومة تحذوا ... قصاعهم من قحوف القوم لا الشزى
قمنا على الملك الجبار نقرعه ... بالسيف منسلتاً والريح مهزوزا
حتى تركنا في هيجاء معضلة ... ألفت ضراماً على الطاغين مأزوزا
إننا لنأبى على الطاغى فحضنا ... حتى فوز في الهيجاء تموزا

ونأكل الموت دون العز نخضعه ... كمضغنا التمر برنياً وسهريرا
لا عدش من لا يحوض الموت مرتضياً ... بقاءه بعصي الذل موكوزا
راعت سالنيك دار الملك فانتبهت ... من ذاك طهران نخشى أمر تبريرا
حتى غدت وهي في تموز ناكسة ... رايات شاد رماد الخلع مجنوزا
فالشاه في شهر تموز هوى وكذا ... عبد الحميد هوى في شهر تموزا
يا شهر تموز لا راعتك رائعة ... ولا لقيت من الأحداث اريزرا
يا شهر تموز قد زينت رايتنا ... بالعدل توشية فيها وتطريزا
من لي بأنجم هذا الأفي أنظمها ... قصائدك فيك مدحاً أو أراجيزا
أو أنحت الماس أقالما معرضة ... أمدما ذهباً في الطرس إبريزا
وأجعل الجو في تموز أمدحه ... طرساً أجادته كف النور ترزيزا

الأسبانية في ١٠ تموز ١٣٢٥

معروف الرصافي